

الفصل السادس

ادمج الحدسي في العقلي لكي تحقّق الإتقان

كل فرد منّا لديه قدرة على بلوغ شكل أعلى من أشكال الذكاء، وهو شكل قد يسمح لنا برؤية أكثر مما نراه في هذا العالم، وتوقّع الاتجاهات، والاستجابة بسرعة ودقة لأيّ ظرف من الظروف. وهذا النوع من الذكاء يتحقّق عن طريق غمر أنفسنا عميقاً في مجال الدراسة الذي اخترناه، والبقاء أوفياء ومخلصين لميولنا، حتى لو بدا للآخرين أننا نسلك نهجاً غير تقليدي. نتيجة لهذا الانغماس الحاد طوال سنوات عدّة؛ سوف نكتسب شعوراً بدهياً للمكوّنات المعقّدة والجوانب الدقيقة في حقل اختصاصنا. وعندما ندمج هذا الشعور البدهي في العمليات العقلية فإننا بذلك نوسّع مدارك عقولنا إلى الحدود الخارجية من إمكانياتنا، ونصبح قادرين على رؤية جوهر سرّ الحياة نفسها، ثم نكتسب بعدها قدرات تُقربنا إلى القوة الفريزية الحدسية والسرعة التي تملكها الحيوانات. ولكن، مع فارق إضافة القدرات الواسعة النطاق التي يمدنا بها الوعي البشري إليها. هذه القدرة هي التي صُمّمت أدمغتنا أساساً من أجل تحقيقها، وسوف نقاد بطبيعة الحال إلى هذا النوع من الذكاء إذا اتّبعتنا ميولنا إلى نهاياتها القصوى.

التحول الثالث

بدا أن مصير الكاتب مارسيل بروسست (1871م-1922م) قد تحدّد منذ ولادته؛ إذ إنه وُلد صغير البنية ضعيفاً، وكان شبح الموت يحوم حوله مدة أسبوعين، ولكنه في النهاية استطاع أن يتخطى الخطر، ويستمر في الحياة. وفي أثناء طفولته كانت تعترضه نوبات متكرّرة من المرض الذي يُلزمه البيت أشهراً عدّة كل مرة. وعندما بلغ سنّ التاسعة ألمّت به أول نوبة للربو كادت تقضي عليه. وكانت أمّه، جين، دائمة القلق على حالته الصحية، وتحبه كثيراً، وتصحبه في رحلات منتظمة إلى الريف علّه يتماثل للشفاء.

في تلك الرحلات تحدّد نمط حياته. ولأنه كان في كثير من الأحيان وحيداً؛ فقد تطوّر لديه شغف بقراءة الكتب، وكان يحب أن يقرأ عن التاريخ، وكان أيضاً يلتهم أشكال الأدب كلها، وكان المصدر الرئيس لنشاطه الجسدي هو المشي مسافات طويلة في الريف، وكانت بعض المشاهد فيه تأسر عقله، فيتوقّف مُحدّقاً ساعات في أزهار التفاح أو زهور الزعرور، أو في أيّ نوع من النباتات الغريبة. كان يجد في مشهد جحافل النمل أو العناكب التي تحيك نسيجها شيئاً ساحراً على نحوٍ خاص، ليقوم بعدها بإضافة كتب عن علم النبات وعلم الحشرات إلى قائمة قراءته. كان أقرب الناس إليه في هذه السنوات المبكرة هي والدته التي تجاوزت تعلقه بها الحدود كلها. لقد كان الاثنان يجمعهما التشابه في المظهر والاهتمام بالفنون. ولم يكن بروسست يُطبق البُعد عنها أكثر من يوم واحد، وكان في الساعات القليلة التي تبتعد فيها عنه يشغل نفسه بكتابة كثير من الرسائل إليها.

في عام 1886م قرأ كتاباً كان له أثر في تغيير مجرى حياته. كان هذا الكتاب سرداً تاريخياً للغزو النورمندي لإنكلترا من تأليف الكاتب أوغسطين تييري، وكان سرد الأحداث فيه مفعماً بالحيوية والوضوح حتى إن مارسيل شعر أن التاريخ قد أخذته إلى تلك الحقبة ليشهد الأحداث بأمّ عينه. كان الكاتب يُنوّه ببعض القوانين الخالدة للطبيعة البشرية التي كشف عنها في القصة، وقد جعلت إمكانية الكشف عن هذه القوانين رأس مارسيل يدور من شدّة الإثارة؛ إذ يستطيع علماء الحشرات اكتشاف المبادئ الخفية التي تحكم سلوك الحشرات. ولكن، هل يستطيع الكاتب أن يفعل الشيء نفسه مع البشر وطبيعتهم المعقّدة؟

من فرط افتتانه بمقدرة تبييري على جعل التاريخ ينبض بالحياة لاح في ذهنه وميض ألمح له أن هذا هو «مهمة حياته»؛ أن يصبح مؤلِّفًا يلقي الضوء على قوانين الطبيعة البشرية. وفي ظل توجسه من الإحساس بأنه لن يعيش طويلاً فقد كان عليه أن يُعجّل في هذه العملية، ويبدل كل ما في وسعه لتطوير قدراته على الكتابة والتأليف.

أبهر مارسيل بغرابته زملاءه في المدرسة التي درس فيها في مدينة باريس حيث كان يعيش؛ ذلك أنه قد قرأ الكثير من الكتب حتى بات رأسه يعجُّ بالأفكار والخواطر، فكان يتحدث عن التاريخ والأدب الروماني القديم، وعن الحياة الاجتماعية للنحل في سياق محادثة واحدة، وكان ينزع إلى المزج بين الماضي والحاضر، مُتحدثاً عن كاتب روماني كما لو كان حياً، أو واصفاً صديقاً لهم في المدرسة كما لو كان شخصية من التاريخ الغابر. كانت عينان الكبيرتان اللتان شبَّههما صديق في وقت لاحق بعيون الذبابة تدوان أشبه بالسهم الذي يخترق جسد الشخص الذي يتحدث إليه. وفي رسائله إلى الأصدقاء كان ينزع إلى تشريح مشاعرهم ومشكلاتهم بدقة وبراعة تثير الأعصاب، ولكنه كان - بعد ذلك كله - يُوجّه الانتباه إلى نفسه، كاشفاً بلا رحمة عن نقاط ضعفه وعيوبه هو. وبالرغم من ميوله إلى الخلو فإنه كان أنيساً إلى درجة لا تُصدّق وجاذباً، وكان يجيد التملُّق والتزلف وكسب الحظوة عند الآخرين، ولم يستطع أحد أن يفهم طبيعته، أو أن يتوقَّع ما يحمله المستقبل لهذا الشخص غريب الأطوار.

في عام 1888م التقى مارسيل سيدة اسمها لور هايمان تبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً، كانت تبدو له أشبه بشخصية في رواية خيالية؛ فخلبته بفكرها، وفي المقابل استطاع هو أن يسحرها ببراعة حديثه وأخلاقه المهدبة، وسرعان ما نشأت بينهما صداقة وطيدة. كان في فرنسا تقليد قديم يتمثّل في ظاهرة الصالونات؛ وهي أماكن يجتمع فيها الأشخاص من ذوي التوجّهات والأفكار المتماثلة يناقشون فيها الأفكار الأدبية والفلسفية، وكانت هذه الصالونات تستقطب الفنانين المهمّين، والمفكرين الكبار، والشخصيات السياسية البارزة. وكانت لور تملك صالوناً سيئ السمعة، يرتاده الفنانون، والبهيميون (المتحلّون من قيم المجتمع وتقاليدِه) والممثلون والممثلات، وسرعان ما أصبح مارسيل من رُوّاده المواظبين.

وجد مارسيل الحياة الاجتماعية لأفراد الطبقة العليا من المجتمع الفرنسي حياة رائعة إلى أبعد الحدود؛ لقد كانت عالماً مليئاً بالرموز والعلامات الخفية: الدعوة إلى حفلات، أو مكان جلوس الشخص على مائدة العشاء الذي يشير إلى مكانته في المجتمع؛ صعوداً أو هبوطاً. كانت الملابس والإيماءات وبعض العبارات المُحدّدة في المحادثة أو اللقاء تؤدي إلى سبيل لا نهاية له من الانتقادات وإصدار الأحكام على الناس والقبيل والقال. وقد تولّدت لديه رغبة في استكشاف هذا المجال وتعلّم خفاياه وتعقيداته كلها. كان اهتمامه كله مُوجَّهاً إلى التاريخ والأدب، وها هو الآن قد تحوّل نحو عالم المجتمع الراقي. واستطاع بالتزوّف أن يشق طريقه إلى صالونات أُخرى، ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبح مخالطاً لأفراد الطبقة الأرستقراطية العليا.

ومع أنه كان مُصمّماً على أن يصبح كاتباً فإنه لم يكن قادراً على تحديد الموضوع الذي يود الكتابة فيه، وكان هذا الأمر يؤرّقه كثيراً. أما الآن، فقد وجد الجواب: هذا العالم الاجتماعي سيكون مستعمرة النمل التي سيعمل على تحليلها بقسوة كما لو كان خبيراً في علم الحشرات، ولهذا الغرض بدأ بجمع الشخصيات التي ستقوم عليها رواياته وتصوّرها. من بين هذه الشخصيات الكونت روبرت دي مونتسكيو، وهو شاعر متذوق للجمال، ومن الشخصيات أيضاً تشارلز هاس الذي كان مثالاً للأناقة في المجتمع الراقي وخبيراً في جمع التحف الفنية. درس بروست جميع الشخصيات جيداً، واستمع باهتمام إلى طريقتهم في الكلام، وتتبع سلوكهم وتصرفاتهم. وفي مذكراته كان يحاول أن يبعث الحياة فيها عن طريق كتابة حوارات أدبية قصيرة أولية، لقد كان مُقلِّداً بارعاً، وكل ما كتبه كان مستمداً من شيء حقيقي، شيء شاهده أو خبره مباشرة، وبخلاف ذلك فإن كتاباته تخلو من الروح والحياة.

بدأ والد مارسيل، وهو طبيب بارز، يشعر باليأس من ابنه؛ إذ كان مارسيل دائم السهر في الحفلات كل ليلة، ويعود إلى البيت في وقت متأخر فجراً، ويمضي بقية النهار في النوم. ولكي يساير حياة المجتمع الراقي؛ فقد كان ينفق مبالغ طائلة من المال،

ويبدو أنه كان يفتقد إلى الانضباط، وليس لديه طموحات مهنية حقيقية. ونظراً إلى مشكلاته الصحية وتدليل أمّه له؛ فقد كان والده يخشى عليه من الفشل، وأن يصير عبئاً

مستمرًا على نفسه وعلى الآخرين؛ لذلك حاول أن يُوجّهه إلى مهنة تنفعه. وفي المقابل، كان مارسيل يُهدّئه قدر ما في وسعه؛ فاليوم يخبره أنه سيدرس القانون، وفي اليوم التالي يبدأ يتحدث عن حصوله على وظيفة أمين مكتبة، ولكنه في الحقيقة كان يُعوّل على نشر روايته الأولى المتع والأيام التي تحوي مجموعة من القصص والرسوم تحكي حالة المجتمع الذي تسلّل إليه. وعلى نهج تييري في سرده للغزو النورمندي سيكون المجتمع الذي تتناوله هذه الرواية نابضًا بالحياة. وبنجاح روايته هذه سيكسب ثقة والده والمتشككين الآخرين جميعًا. ولضمان ترويج الرواية وجعلها أكثر من رواية عادية فإنه سيضمّنُها رسومًا جميلةً لسيدة من طبقة المجتمع الراقي تربطه بها صداقة، وستُطبع على أفضل أنواع الورق.

بعد أن تأجّل طبع الرواية أكثر من مرة نُشرت أخيرًا عام 1896م. وبالرغم من أن عددًا كبيرًا من التعليقات والمراجعات كانت إيجابية فإن النقاد ظلوا يصفون أسلوب الكتابة بالرائع المرهف، وهي كلمات تدل على السطحية - نوعًا ما - في العمل، ولكن الأمر الذي كان أكثر مدعاة للقلق هو أن الرواية لم تشهد إقبالًا يُذكر. وبأخذ التكاليف المرتفعة للطباعة والنشر في الحسبان فقد خسر بروسست الكثير من المال بعد فشل روايته، وترسّخت الصورة العامة لمارسيل بروسست؛ فهو الشخص الأنيق المدهش المُقلد الذي كتب عن العالم الوحيد الذي يعرفه، إنه شاب يفتقد إلى الحسّ العملي، فراشة اجتماعية جرّبت حظها في الأدب. لقد كانت الرواية مصدرًا للهوان والحرّج وفقدان الروح المعنوية.

بعد هذه النتيجة نمت ضغوط الأسرة على بروسست في اختيار مهنة ما، ولكنه بقي واثقًا بمهاراته، وقرّر أن الحل الوحيد هو كتابة رواية أخرى، وهذه المرة ستكون على النقيض من رواية المتع والأيام، وستكون أطول بكثير منها وأرزن، وسيقدّم فيها مزيجًا من ذكريات الطفولة والتجارب الاجتماعية الأخيرة، ويصوّر حياة الناس كافة، وكذا حقبة كاملة من التاريخ الفرنسي. لن يُنظر بعد اليوم إلى روايته الجديدة بوصفها سطحية. ولكن، بالرغم من طول الرواية وامتداد أحداثها فقد تعذّر عليه معرفة كيف يجعلها متماسكة منطقيًا، أو حتى يجعل منها ما يشبه القصة. لقد وجد نفسه يتخبّط تائهاً في ضخامة طموحه، فقرّر بعد كتابته مئات الصفحات التخلي عن المشروع في نهاية عام 1899م.

بدأ يعتريه شعور متزايد بالاكْتئاب والقنوط، وأصبح متعباً من ارتياد الصالونات ومخالطة الأغنياء، لم يكن لديه مهنة، ولا وظيفة يمكنه الاعتماد عليها. ومع قرب بلوغه سنِّ الثلاثين كان لا يزال يعيش في منزل والديه، ويعتمد عليهما في الحصول على المال. كان دائم الشعور بالقلق حيال وضعه الصحي، وكان لديه إحساس جازم أنه سيلاقي حتفه في غضون بضع سنوات. سمع قصصاً كثيرةً من أصدقائه في المدرسة كيف أصبحوا من الأعضاء البارزين في المجتمع، وصار لديهم أسر كبيرة، وبمقارنة نفسه بهم شعر أنه فشل فشلاً ذريعاً؛ فكل ما أنجزه لا يعدو سوى عدد قليل من المقالات التي نشرها في الصحف، والتي تتحدث عن المجتمع الراقي، وكتاب جعل منه أضحوكة في باريس، وكان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعتمد عليه في حياته هو تفاني أمه المستمر وحبها له.

في غمرة هذا اليأس خطرت له فكرة؛ ففي السنوات الماضية كان قد عكف على قراءة أعمال المفكر والناقد الفني الإنجليزي جون روسكين، فتوارد إلى ذهنه أن يُعلِّم نفسه اللغة الإنجليزية، ويُترجم مؤلفات روسكين إلى اللغة الفرنسية، وهذا يتطلب سنوات من البحث العلمي في مختلف الموضوعات التي كان روسكين مُنخَصّاً فيها مثل العمارة القوطية. ولا شك أن ذلك سيستهلك الكثير من وقته، وسيضطره إلى تأجيل كتابة أيّ رواية، ولكنه سوف يظهر لوالديه بمظهر الإنسان الجاد في كسب العيش، الذي تمكّن أخيراً من اختيار مهنة له. ونظراً إلى تمسُّكه بهذه الفكرة بوصفها أمله الأخير؛ فقد انهمك في المهمة مُولياً إياها جُلَّ اهتمامه.

بعد سنوات عدّة من العمل المُكثَّف نُشر عدد قليل من ترجماته لروسكين، نالت إشادة كبيرة من فئات كثيرة في المجتمع. كانت مقدّماته ومقالاته التي رافقت تلك الترجمات كافية لمحو سمعة الشخص الهاوي الخمول التي كانت تطارده منذ نشره رواية المتع والأيام، وأخذ يحظى بسمعة العالم الباحث الجاد، فقد تمكّن في أثناء عمله من تجويد أسلوبه الخاص في الكتابة، مستوعباً أعمال روسكين. لقد أصبح الآن قادراً على كتابة المقالات المدروسة والدقيقة، وحصل أخيراً على شيء من الانضباط، شيء يمكنه البناء عليه. ولكن، في خضم هذا النجاح المتواضع تهاوت فجأة شبكة الدعم العاطفي التي كانت تسانده ثم اختفت؛

في عام 1903م توفي والده، وبعد ذلك بعامين توفيت والدته التي لم تستطع تحمّل إخفاقه وفشله. كانت الأسرة ملتزمة دائماً، وكان مارسيل يخشى لحظة وفاتها منذ طفولته، وها هو الآن يشعر أنه وحيد في هذا العالم، ويخشى أنه لم يبقَ له شيء يعيش من أجله.

في الأشهر التي تلت ذلك بدأ ينسحب ببطء من المجتمع، وبعد أن راجع مسيرة حياته حتى ذلك الوقت ظهر له بوضوح نمط منحه أضعف بصيص من الأمل. وللتعويض عن ضعفه الجسدي، كان يلجأ إلى القراءة، وفيها اكتشف «مهمة حياته». وعلى مدار السنوات العشرين الماضية تراكم لديه كم هائل من المعرفة عن المجتمع الفرنسي: مجموعة كبيرة من الشخصيات الواقعية من مختلف الأنواع والطبقات الماثلة في رأسه. وكان قد كتب آلاف الصفحات، بما في ذلك رواية كان مصيرها الفشل، ومقطوعات أدبية قصيرة للصحف، ومقالات مختلفة. وبتخاذده روسكين مرشداً له في مؤلفاته، وترجمة أعماله، استطاع أن يتعلّم الانضباط وبعض المهارات التنظيمية. كان يعتقد منذ أمد طويل أن الحياة ما هي إلا تلمذة مهنية تتلقّى فيها التدريب، وتعلّم فيها ببطء ثقافات شعوب العالم وعاداتها وتقاليدها. فبعض الأشخاص تعلّموا قراءة الإشارات والعبر من دروس هذه التلمذة، وطوّروا أنفسهم في هذه العملية، وبعض آخر فاتهم ذلك. أمّا هو فقد أمضى عشرين عاماً في تلمذة مهنية على الكتابة وعلى دراسة الطبيعة البشرية، وكان له تأثير كبير فيه. وبالرغم من سوء حالته الصحية وإخفاقاته فإنه لم ييأس قط، ولا بد أن ذلك يعني شيئاً (مصير من نوع ما)، وقرّر أن إخفاقاته كلها كانت لغرض؛ إذ كان يعرف كيفية استغلالها، ولهذا لم تذهب سنوات عمره سُدًى.

ما كان يلزمه هو الاستفادة من هذه المعرفة كلها بصورة عملية، وهذا يعني العودة إلى الرواية التي استعصت عليه باستمرار. ولكن، ماذا سيكون موضوع الرواية (الحبكة، صوت الراوي)؟ لم تكن لديه أيُّ فكرة عن ذلك، لكن المادة كانت مختصرة في رأسه. صحيح أنه أضحى وحيداً ولم يعد بإمكانه استعادة أمّه وطفولته وشبابه، ولكنه ما زال قادراً – نوعاً ما – على إعادة الأمور إلى نصابها، هنا في شقته حيث يعكف في خلوته على ذلك. إن الأمر الأهم بالنسبة إليه هو أن يبدأ العمل، ثم ستبدأ الأفكار بالتوارد تباعاً.

في خريف عام 1908م اشترى مارسيل عشرات الدفاتر من النوع الذي اعتاد استخدامه في المدرسة، وبدأ يكتب عليها ملحوظاته، فكتب مقالات عن علم الجمال، ووصف بعض الشخصيات، وذكريات الطفولة التي يصعب تذكرها. ومع ذهابه بعيداً في هذه العملية وتعمُّقه فيها بدأ يشعر بتغيُّر في نفسه، شيء لمع في ذهنه. لم يكن يعلم من أين جاء، ولكن ظهر صوت، صوته هو الذي كان يؤدي دور الراوي نفسه. تتحدَّث القصة عن شاب كان متعلِّقاً بأُمَّه تعلقاً جنونياً حتى غدا عاجزاً عن صياغة هويته الخاصة. لقد اكتشف رغبته في أن يكون كاتباً، لكنه لا يستطيع معرفة ما ينبغي أن يكتب عنه. ومع تقدُّمه في السنِّ بدأ يستكشف اثنين من العوالم الاجتماعية، هما: البوهيمية، والأرستقراطية الإقطاعية. كان يُشرِّح العديد من الأشخاص الذين يقابلهم، كاشفاً عن جوهر شخصياتهم الحقيقية التي تتبع تحت تلك الواجهة السطحية الاجتماعية، وكانت له العديد من العلاقات التي عانى فيها أقصى درجات الغيرة. وبعد الكثير من المغامرات والشعور المُتسلِّ بالفشل مع تقدُّمه في الحياة، اكتشف ما يريد أن يكتب عنه؛ إنه الكتاب الذي كُنَّا نقرأه تَوّاً.

سَيُطَلِّق على هذه الرواية اسم «البحث عن الزمن المفقود»، وسيعمل في نهايتها على إعادة سرد معظم سيرة حياته الخاصة، وسير مختلف الشخصيات التي عرفها ولكن بأسماء مختلفة. وفي سياق السرد فقد تناول بروسست عرضاً لتاريخ فرنسا منذ لحظة ولادته حتى وقته الراهن، وبصرف النظر عن الوضع الراهن فإنه سيكون صورة للمجتمع كله، وسيكون هو عالم الحشرات الذي يكشف عن القوانين التي تحكم سلوك سكان مستعمرة النمل كافة. لقد أصبح همه الوحيد الآن هو صحته، وباتت المهمة الملقة على عاتقه كبيرة، فهل سيعيش حتى يُتِمَّ هذه المهمة؟

خلال بضع سنوات أنهى الجزء الأول من الرواية التي أطلق عليها اسم «طريق سوان»، والتي طُبِعَت عام 1913م، وقد نالت مراجعةً ونقداً إيجابياً مُرضياً. لم يكن أحد قد قرأ رواية تشابهها من قبل، ويبدو أن بروسست قد أوجد طرازاً جديداً من الروايات، فكانت رواياته في جزء منها رواية، وفي الجزء الآخر مقالة. ولكن، حين أوشك أن يُتِمَّ النصف الأخير من الرواية، اندلعت الحرب في مختلف أنحاء أوروبا، وعانت دور النشر الكساد نتيجة لذلك، ولكن بروسست واصل عمله في كتابة الرواية من دون كلل. وفي هذه الأثناء حدث شيء

غريب؛ إذ أخذت الرواية تتضخّم وتتمدّد، مجلّدًا بعد آخر، فقد كان منهجه في العمل أحد أهم أسباب هذه الزيادة. لقد جمع على مرّ السنين آلاف القصص والشخصيات، ودرّوس الحياة، وقوانين علم النفس التي نسجها معًا ببطء في الرواية، مثل لوحة من الفسيفساء، ولم يكن يمكنه التنبؤ بالنهاية.

ومع زيادة حجم الرواية بدأ فجأة ينحو منحى مختلفًا، فقد أصبحت الحياة الحقيقية والرواية متشابكتين على نحوٍ وثيق، وحين تظهر الحاجة إلى شخصية جديدة، مثل ظهور فتاة أول مرة في الرواية، فإنه كان يطارد ما يشابهها في المجتمع عن طريق الذهاب إلى الحفلات والسهرات حتى يتمكّن من دراستها، وتستجد العبارات التي تستخدمها في الحديث معه طريقها إلى الرواية. وذات ليلة، حجز عدّة شرفات في المسرح لأصدقائه، وكان يجمع فيها أشخاصًا من واقع الحياة من الذين بنى شخصيات روايته عليهم. وفي وقت لاحق يحضرون العشاء، وحول المائدة كان يراقب بعينه، مثل عالم الكيمياء، العناصر المختلفة التي تتألّف منها روايته. لا أحد منهم بالطبع كان يعرف ما يجري، وكل شيء أصبح مادة له، ولا يقتصر ذلك على الماضي وحسب، بل كانت الأحداث والمواجهات الحالية توحى إليه فجأة بفكرة جديدة أو توجّه جديد.

عندما رغب في الكتابة عن النباتات والزهور التي كانت تأسر عقله حين كان صبيًا فإنه كان يسافر إلى الريف ليقضي ساعات طويلة في المراقبة، في محاولة للحصول على جوهر طابعها الفريد، والوقوف على ما أسرّ لُبّه منها، وذلك حتى يتمكّن من نقل الإحساس الحقيقي إلى القارئ. ولمّا أراد تصوير شخصية الكونت روبرت دي مونتسكيو الذي ظهر في الرواية باسم كارلوس، زار بروسست الأماكن التي كان الكونت يتردّد عليها في باريس؛ كان يسعى إلى أن تكون روايته أقرب إلى الواقع قدر الإمكان، وبالنسبة إلى الأشياء التي لا يقدر أن يشهدها بنفسه فإنه كان يدفع إلى طرف ثالث المال لقاء تزويده بالقييل والقال، والمعلومات، وحتى القيام ببعض عمليات التجسس لمصلحته. ومع تزايد حجم الرواية كمًّا واعدًا بدأ يتولّد لديه إحساس بأن هذه الجوانب الاجتماعية التي كان يُصوّرُها قد أصبحت تبض بالحياة في داخله، وبهذا الشعور الداخلي أخذت تتدفق منه بقوة وسهولة. كان يستخدم الاستعارة لتوضيح هذا الإحساس، وقد ذكره في الرواية: لقد كان مثل العنكبوت

التي تجلس على شبكتها، وتستطيع أن تشعر بأدنى اهتزاز فيها، وتعرفها معرفة عميقة كما يعرف هو العالم الذي أوجده في روايته وأتقنه.

بعد انتهاء الحرب استمرت روايات بروست بالصدور مجلداً تلو الآخر، وقد ذهل النقاد تماماً من زخم أعماله واتساعها. لقد عمل على بناء (أو إعادة بناء) عالم كامل، بيد أن هذه الرواية لم تكن رواية واقعية؛ إذ إن معظم أحداثها كانت رسائل وخطابات عن الفن، وعلم النفس، وأسرار الذاكرة، وعمل الدماغ نفسه. كان بروست يُفتش عميقاً في سيكولوجية ذاته شخصياً، وقد ظهر على يديه اكتشافات جديدة عن الذاكرة واللاوعي تبدو خارقة للطبيعة في دقتها وصحتها. كان القراء الذين تلقفوا أسفار روايته سفرًا تلو الآخر يشعرون أنهم يعيشون أحداث الرواية من داخلها حتى أصبحت أفكار الراوي وأفكار القارئ واحدة؛ إذ تلاشت الحدود التي تفصل بين الراوي والقارئ. لقد كان لذلك تأثير سحري؛ إذ كان الشعور بالرواية يضارع الحياة نفسها.

نال التعب والإجهاد من بروست في أثناء كتابة الجزء الأخير من الرواية، وهي المرحلة التي كان فيها الراوي قادراً على كتابة الرواية التي نقرأها. والحقيقة أن بروست كان في عجلة من أمره؛ إذ كان يشعر أن طاقته بدأت تخبو، وأنه بات على مرمى حجر من الموت. في مرحلة طباعة الرواية كان بروست يتدخل أحياناً لوقف الطباعة كي يضيف مشهداً جديداً شاهده شخصياً إلى الرواية. والآن، بعد أن شعر بدنوّ أجله أمر الفتاة التي كانت تقوم على خدمته بكتابة بعض الملحوظات النهائية، لقد فهم أخيراً كيفية الشعور بالموت، وكان عليه أن يعيد كتابة مشهد سابق في الرواية يحكي لحظات الاحتضار على فراش الموت، لم يكن ذلك المشهد سيكولوجياً بما فيه الكفاية. وللأسف الشديد، فقد توفي بعد ذلك بيومين من دون أن يرى الأجزاء السبعة لروايته مطبوعة.

مفاتيح الإتقان

«كان كوك تينغ منهمكاً في تقطيع ثور للسيد ون هوي... وحين رأى السيد ون هوي ذلك قال: «آه، ما أروع هذا العمل!... تخيّل بلوغ المهارة إلى مثل هذه المستويات!». وما إن سمع تينغ ذلك حتى وضع مديته قائلاً: «ما يهمني هو الطريقة. إنها تتخطى المهارة. عندما

بدأت العمل بتقطيع الثيران كان كل ما يمكن أن أراه أمامي هو الثور نفسه. ولكن بعد ثلاث سنوات، لم أعد أرى الثور كله. إنني أقوم الآن بعمل مستعيناً بالروح، ولا أنظر بعيني. لقد توقفت عن الإدراك والفهم، وأصبحت الروح طليقة تذهب إلى حيث تريد».

- تشوانغ تزو، كاتب صيني من القرن الرابع قبل الميلاد

قرأنا على مرّ التاريخ عن أشخاص بلغوا رتبة الإتقان والرياسة في كل مجال يمكن تخيُّله من النشاط البشري، وقد ادّعى هؤلاء بامتلاكهم قدرات فكرية فائقة بعد مضي سنوات من الانغماس في مجالاتهم. فقد تحدّث أستاذ الشطرنج بوبي فيشر أنه قادر على التفكير أبعد من الحركات المختلفة للقطع على رقعة الشطرنج، وبعد مدة من الزمن أصبح يرى «حقوقاً من القوات» التي سمحت له أن يتوقّع مسار المباراة الكامل. أمّا بالنسبة إلى عازف البيانو غلين غولد فلم يعد مُلزمًا بالتركيز على النوتات أو أجزاء من الموسيقى التي يعزفها، فقد أصبح يرى الهيكل الكامل للمعزوفة ويمكنه أن يُعبّر عنها. وأمّا ألبرت آينشتاين فقد استطاع أن يتوصّل فجأة إلى الإجابة عن المشكلة التي تصدى لها، حتى إنه توصّل أيضاً إلى وسيلة جديدة في النظر إلى الكون، كل ذلك عن طريق صورة مرئية توقّعها، في حين تحدّث المخترع توماس أديسون عن رؤية خطرت له بإضاءة مدينة كاملة عن طريق الكهرباء، وهذا النظام المعقّد توصّل إليه أيضاً عن طريق صورة واحدة.

في الحالات السابقة كلها، وصف الممارسون من ذوي المهارات شعوراً برؤية أكثر مما تراه العين. لقد أصبحوا فجأة قادرين على فهم حالة كاملة بوساطة صورة، أو فكرة، أو مجموعة من الصور والأفكار، وقد خبروا هذه القدرة وشعروا بها عن طريق الحدس، أو اللمس بالبنان (التحكم في الشيء بأطراف الأصابع).

بالنظر إلى القدرة التي يجلبها لنا مثل هذا الذكاء، والإسهامات الهائلة التي قدّمها أصحاب الرياسة في ميادين الثقافة والمعرفة ممن يملكونها، فقد كان منطقيّاً جعل هذا الحدس رفيع المستوى موضوع مؤلّفات وكتب ومناقشات لا تُعدّ ولا تحصى، وأن تتطوّر طريقة التفكير التي تؤدي إليه لتصبح مثلاً أعلى وهدفاً نسعى جميعاً إلى تحقيقه. ولكن الغريب العجيب أن الحال ليست بهذه السهولة؛ لأن هذا النوع من الذكاء إمّا أن يُتقاضى عنه، وإمّا أن يُعزى إلى عوالم باطنية أو غامضة لا يمكن تفسيرها، وإمّا أن يُنسب إلى العبقريّة وعلم

الوراثة، حتى إن بعض النُقَّاد حاول دحض هذا النوع من القدرة عمومًا، مُدَّعِيًا أن الذين بلغوا مرتبة الإتقان والرياسة يببالغون في تجاربهم، وأن ما يسمونه قدراتهم الحدسية (البدئية) ليست أكثر من صور مستفيضة من التفكير العادي المُؤَسَّس على معرفة متفوقة.

وراء هذا التجاهل الكلي سبب بسيط، هو أننا نحن - البشر - اعتدنا نعرّف شكل واحد من التفكير والذكاء العقلاني. والتفكير العقلاني هو تفكير متسلسل؛ إذ نرى الظاهرة (أ)، ونستنتج السبب (ب)، وربما نتوقّع ردّ الفعل (ج). وفي حالات التفكير العقلاني جميعها يمكننا إعادة بناء مختلف الخطوات التي اتخذناها للوصول إلى نوع من الاستنتاج أو الإجابة. إن هذا النوع من التفكير يمتاز بفاعلية كبيرة، ويجلب لنا قدرات هائلة، وقد طوّرناه لكي يساعدنا على فهم العالم من حولنا فهمًا معقولًا، والتحكم فيه جيدًا. ولمّا كانت العملية التي يعتمدها الناس في الوصول إلى النتيجة عن طريق التحليل العقلاني يمكن التحقق منها عمومًا فإنها تحظى بالتقدير والإجلال. إننا نُفضّل الأشياء التي يمكن اختزالها في صيغة، أو وصفها بكلمات دقيقة. ولكن أنواع البدهيات التي ناقشها أصحاب الرياسة في حقولهم لا يمكن اختزالها في أيّ صيغة، فضلًا عن أن الخطوات التي سلكوها في محاولة الوصول إليها لا يمكن إعادة بنائها. إننا لا نستطيع أن نساfer داخل عقل ألبرت آينشتاين لنشهد فهمه المفاجئ لطبيعة نسبية الزمن. ولأننا ندرك أن العقلانية هي الشكل الشرعي الوحيد للذكاء؛ فإن هذه الخبرات والمشاهدات من «رؤية المزيد» إمّا أن تكون أشكالاً من التفكير العقلاني الذي يحدث سرعة خاطفة، وإمّا أنها معجزة من خوارق الطبيعة.

المشكلة التي تواجهنا هنا هي أن الحدس رفيع المستوى، الذي هو علامة الإتقان النهائية، ينطوي على عملية تختلف نوعيًا عن العقلانية، ولكنها أكثر دقة وبصيرة؛ فهي تصل إلى أعماق سحيقة من الواقع. وهي نوع أصيل صحيح من الذكاء، ولكنه نوع يحتاج إلى أن يكون مفهومًا في حدّ ذاته. وبفهمه يمكننا أن نبدأ إدراك أن هذه القدرة والسلطة ليستا خارقتين، بل إنسانيتين في جوهرهما، وأن الوصول إليهما متاح لنا جميعًا.

دعونا نحاول فهم هذا النوع من التفكير عن طريق دراسة الكيفية التي يمكن أن يعمل بها في شكلين مختلفين جدًّا من أشكال المعرفة: علوم الحياة، والحرب. فإذا أردنا دراسة

حيوان معيّن من أجل فهمه فإننا نبدأ الدراسة بتقسيمها إلى أجزاء عدّة، فندرس أجهزة جسمه المختلفة، ودماعه، وتركيبه التشريحي لنلاحظ كيف اختلف في تكيفه مع بيئته عن الحيوانات الأخرى. وندرس أيضاً أنماط سلوكه، وكيف يجمع الطعام، وطقوس تزاوجه، ثم ننظر إلى كيفية عمله ضمن نظام بيئي شامل. وبهذه الطريقة سنكون قادرين على تجميع صورة دقيقة عن هذا الحيوان تتناوله من الزوايا جميعها. والأمر نفسه ينطبق على الحرب؛ إذ نقسمها أقساماً عدّة: مناورات الميدان، الأسلحة، الخدمات اللوجستية، الإستراتيجية. وبعد الالمام العميق بهذه الموضوعات يمكننا تحليل نتائج معركة ما، واستخلاص بعض الاستنتاجات المثيرة للاهتمام. وفي حال حظينا بعض الخبرة الميدانية فيمكننا قيادة الجيش في المعركة، وشن هجوم مباغت.

بالرغم من قيامنا بهذه التحليلات خير قيام فإن شيئاً ما يظل مفقوداً لا محالة. فالحيوان ليس مجرد مجموع أجزائه بحيث يمكننا فهمه عن طريق فهمنا الأجزاء وجمعها معاً. إن للحيوان تجربته وعواطفه الخاصة التي تُؤثّر كثيراً في سلوكه، ولكن هذه الجوانب لا نستطيع رؤيتها أو قياسها، ولها تفاعلاتها الخاصة المعقّدة مع بيئتها، وهي تصبح مُشوّهة عند تقسيمها إلى أجزاء. يُذكر أن الحيوان يتفاعل مع بيئته بصورة سائلة مستمرة وفق أبعاد لا يمكننا مشاهدتها بأعيننا. وكذا الحال بالنسبة إلى الحرب، فحين تشتبك الجيوش في المعركة نصبح عُرضة لما يُسمّى ضباب الحرب، وهو عنصر لا يمكن التنبؤ به، وينتج عندما تتواجه قوتان متعارضتان، ولا يمكن توقُّع شيء توقُّعاً دقيقاً حتى ينجلي غبار المعركة، ويظل الوضع سائلاً باستمرار ما دام كل طرف يتفاعل مع ما يصدر عن الطرف الآخر، ويحدث الشيء غير المُتوقَّع. فالمعركة في وقتها الحقيقي لها عنصر تفاعلي متغيّر لا يمكن اختزاله إلى أجزائه أو إخضاعه لتحليل بسيط، وهو شيء لا يمكننا أن نراه أو نقيسه.

إن هذا العنصر غير المرئي الذي يُمثّل تجربة الحيوان كلها، أو العنصر الذي يجعل المعركة كياناً عضوياً سائلاً، يمكن تسميته بمسميات مختلفة؛ فهو عند الصينيين القدماء الذين فهموه جيداً معروف باسم الطاو أو الطريق، وهذا الطريق موجود في كل شيء في العالم، وهو جزء لا يتجزأ من العلاقات بين الأشياء، وهذا الطريق واضح للخبير في مختلف

المهن والمجالات (الطبخ، النجارة، الحرب، الفلسفة)، وسُنِّطَ عليه اسم الديناميكية؛ أي القوة الحية التي تعمل حتمًا في أي شيء ندرسه أو نفعله، إنها تعبير عن الكيفية التي يعمل بها كل شيء، وكيف تتطوّر العلاقات من الداخل، إنها ليست تحركات القطع على رقعة الشطرنج، بل اللعبة كلها، بما في ذلك الحالة النفسية للاعبين، وإستراتيجياتهم التي يعتمدونها في الوقت الحقيقي للمباراة، وتجاربهم السابقة التي تُؤثّر في الحاضر، وراحة الكراسي التي يجلسون عليها، وكيفية تأثير طاقاتهم بعضها في بعض. وبكلمة موجزة، إنها كل شيء له تأثير في لحظة الحدث.

إن الانغماس المُكثَّف في مجال معيّن مدة طويلة من الزمن يجعل أصحاب الرياضة يفهمون مختلف الأجزاء المتعلقة بما يدرسون أو يفعلون، ويستوعبونها في داخلهم بحيث تختفي الأجزاء من منظورهم، فيتولّد لديهم - بدلاً منها - شعور حدسي بالكل والمجموع، فهم فعليًا يرون الديناميكية، أو يشعرون بها. ومن الأمثلة على ذلك في مجال العلوم الحية الباحثة جين غودال التي عكفت على دراسة قرود الشمبانزي في براري شرق إفريقيا حيث عاشت بينها سنوات عدّة. ومن كثرة تفاعلها المتواصل مع تلك الحيوانات وصلت إلى مرحلة بدأت تفكّر فيها مثل الشمبانزي، وتستطيع أن ترى عناصر الحياة الاجتماعية عند الشمبانزي بما لا يمكن أن يخطر على بال أيّ عالمٍ آخر. وقد استطاعت أن تكتسب شعورًا حدسيًا ليس فقط لكيفية عمل الشمبانزي فرادى، بل ضمن المجموعة التي تُمثّل جزءًا لا يتجزأ من حياتها، واستطاعت أيضًا اكتشاف حقائق كثيرة عن الحياة الاجتماعية لقرود الشمبانزي غيرت مفهومنا عن هذه الحيوانات، وهذه الاكتشافات ليست أقلّ استحراقًا لوصف «العلمية»: لاعتمادها على هذا المستوى العميق من الحدس.

فيما يخص الحروب يمكننا أن نشير إلى أن الجنرال الألماني الكبير أروين روميل الذي يشاع أنه يمتلك أفضل صور الشعور بالبنان من أيّ قائد عسكري آخر على مدار تاريخ الحروب؛ إذ يمكنه الشعور الدقيق بالمكان الذي يفكّر العدو في الهجوم عليه، ثم يحبط مخططاته، ويمكنه أيضًا شن هجوم دقيق على الثغرات (نقاط الضعف) في خطوط دفاعات العدو، وكان يبدو أشبه بمن يملك عينين في الجزء الخلفي من رأسه، وقدرات غيبية على

قراءة المستقبل. لقد فعل هذا كله في صحارى شمال إفريقيا، حيث كان مستحيلاً الحصول على أي صورة واضحة من الشعور بالتضاريس، بيد أن قدرات روميل لم تكن قدرات باطنية، بل كان يملك معرفة أعمق بكثير مما يملكه غيره من الجنرالات بجوانب المعركة جميعها، وكان يطير باستمرار فوق الصحراء بطائراته الخاصة؛ لكي يحظى بنظرة شاملة للتضاريس. وبالمثل، فقد كان ميكانيكياً حاذقاً خبيراً بدباباته وقدراتها. لقد درس دراسة مستفيضة سيكولوجية الجيش المقابلة وقادته، وكان يتفاعل عن قرب مع جنوده جميعاً، وكان لديه إحساس واضح بقدراتهم القتالية. بصرف النظر عمّا درسه روميل فإنه فعل ذلك بتركيز وتأمّل شديدين لم يعهدهما أحد من قبل، وقد وصل المرحلة التي أصبحت فيها هذه التفاصيل كلها مستوعبة وراسخة في داخله، ثم اندمجت جميعها معاً في دماغه، وهو ما أتاح له الإحساس بالصورة الكاملة والشعور بهذه الديناميكية التفاعلية.

إن القدرة على استجلاب هذا الفهم الحدسي للكل والشعور بهذه الديناميكية هي عملية مرتبطة بالزمن. ولما تبين أن الدماغ يخضع لتغيّر فعلي بعد نحو (10,000) ساعة من الممارسة العملية فإن هذه القوى لا بد أن مصدرها هو التحوّل الذي يحدث في الدماغ بعد نحو (20,000) ساعة وأكثر. ومع هذه الممارسة الكثيرة والخبرة يتكوّن في الدماغ مختلف أنواع الربط بين أشكال المعرفة المتنوعة. ولهذا فإن أصحاب الرياسة في حقولهم يملكون شعوراً بكيفية تفاعل كل شيء عضوياً، ويمكنهم استشعار الأنماط أو الحلول في لمحة بصر. لا يحدث هذا الشكل السائل من التفكير بوساطة عملية مجزأة خطوة خطوة، بل يأتي في ومضات ورؤى حين يتوصّل العقل إلى اكتشاف اتصالات وروابط مفاجئة بين الأشكال المختلفة من المعرفة، مما يسبّب لنا الشعور بالديناميكية مباشرة في وقتها الحقيقي.

يُفضّل بعض الأشخاص أن نتخيّل حدوث هذا الحدس بصورة متسلسلة، والصحيح أن هذه العملية تحدث بسرعة كبيرة بحيث يفوت المفكّر معرفة خطواتها، وهذا المنطق ينبع من الرغبة في إعادة أيّ شكل من أشكال الذكاء إلى مستوى الذكاء العقلاني، فمثلاً استطاع ألبرت أينشتاين اكتشاف النظرية النسبية البسيطة (الخاصة)، ولكنه لا يستطيع إعادة بناء الخطوات التي قادت بصيرته إلى نسبية الزمن في وقت لاحق. إذن، لماذا ينبغي له أن يتصوّر أن هذه

الخطوات موجودة؟ يجب أن نثق بالخبرة والوصف اللذين يصدران عن أصحاب الرياسة في حقولهم، وبقية الناس الذين يملكون مستويات عالية من الوعي الذاتي والمهارات التحليلية.

بيد أنه سيكون من قبيل التفكير الخطأ الاعتقاد بأن الذين بلغوا الرياسة في حقولهم يتبعون حدسهم، ويتجاوزون التفكير العقلاني. فهم بدايةً لم يصلوا إلى هذا النموذج الأعلى من الذكاء إلا بعملهم الشاق، وعمق معرفتهم، وتطويرهم لمهاراتهم التحليلية، وهم حين يشهدون هذا الحدس أو البصيرة فإنهم يخضعونه دائماً لمستوى عالٍ من التأمل والمنطق. ففي مجال العلوم يجب أن يقضي هؤلاء الرؤساء شهوراً أو سنوات للتحقق من حدسهم. أمّا في مجال الفنون فيجب عليهم اختبار الأفكار التي ترد إليهم حدسياً وعقلياً، ووضعها في صورة ما. وهذا مما يصعب علينا تخيُّله؛ لأننا نجد أن الحدسي والعقلاني لا يجتمعان، وأن كلاً منهما يقصي الآخر. ولكن، في هذا المستوى الرفيع نجد أنهما يعملان معاً بصورة سلسلة. يُذكر أن منطق أصحاب الرياسة يعتمد على الحدس ويسترشد به، وأن هذا الحدس ينبع من تركيزهم العقلاني الشديد؛ فالاثنتان منصهران ومندمجان.

بالرغم من أن الوقت هو العامل الحاسم في تحقيق الإتقان وهذا الشعور الحدسي فإن الوقت الذي نتحدث عنه ليس محايداً أو كمياً. فساعة من تفكير آينشتاين في سنِّ السادسة عشرة لا تساوي الساعة التي يقضيها طالب عادي من مدرسة ثانوية في حلِّ مشكلة في الفيزياء؛ انها ليست مسألة دراسة موضوع مدة عشرين عاماً ليخرج بعدها الشخص وقد حقّق الرياسة وبلغ مرتبة الإتقان. إن الوقت الذي يؤدي إلى الإتقان يعتمد على كثافة التركيز.

إذن، مفتاح تحقيق هذا المستوى الأعلى من الذكاء هو جعل سنوات الدراسة غنية نوعياً، بحيث لا نكتفي بتلقي المعلومات واستقبالها، بل نستوعبها ونستبطنها ونمتلكها بأن نجد بعض الطرائق التي تمكّننا من وضع هذه المعرفة موضع التطبيق والاستخدام العملي. فنحن نبحث دائماً عن الروابط بين مختلف العناصر التي نتعلّمها والقوانين الخفية التي يمكننا أن نتخيّلها في مرحلة التلمذة المهنية. وفي حال تعرّضنا لتجارب من الفشل أو النكسات فلا ينبغي أن نسارع إلى نسيانها ودفنها لأنها تسيء إلى كبريائنا، بل يجب أن نفكر فيها بعمق، ونحاول معرفة ما حدث من خطأ، ونتبيّن الأنماط المتكرّرة لأخطائنا. ومع

تقدّمنا سنبدأ التشكيك في بعض الافتراضات والقناعات التي تعلّمناها على طول الطريق، ثم لا نلبث حتى نبدأ بتجربة أفكارنا الجديدة، ونزداد نشاطاً. ويجب علينا في كل لحظة من اللحظات المختلفة التي تؤدي إلى الإتقان أن نتفاعل معها بقوة. فكل لحظة وكل تجربة تحتوي على دروس مؤثّرة بالنسبة إلينا. ونحن مستيقظون على الدوام، ولا نقبل أبداً الاكتفاء بالعمل الاعتيادي (الروتيني).

إن أفضل مثال على الاستخدام الأمثل للوقت في تحقيق الإتقان هو مارسيل بروسست الذي ترتبط روايته العظيمة «البحث عن الزمن المفقود» بهذا الموضوع. ففي الفرنسية فإن الكلمة التي تقابل لفظة «المفقود» هي (perdu) التي تعني أيضاً «المهدر». وفي نظر بروسست نفسه، ونظر الكثيرين الذين عرفوه في شبابه، كان يبدو أنه الشخص الأقل احتمالاً من غيره لبلوغ مرتبة الإتقان؛ لأنه أضاع الكثير من الوقت الثمين. وعلى ما يبدو كان كل ما يفعله هو قراءة الكتب، والمشى، وكتابة عدد غير محدود من الرسائل، وحضور الحفلات، والنوم في أثناء النهار، ونشر مقالات عادية (سطحية). وحين تفرّغ في النهاية لترجمة مؤلّفات روسكين نجده أمضى وقتاً طويلاً جداً، وأفحم نفسه في مهام تبدو غير ذات صلة بما يقوم به، مثل السفر إلى المواقع المذكورة في كتب روسكين، وهو أمر لا يمكن أن يخطر على بال مترجم آخر أن يقوم به.

كان بروسست نفسه قد شكّا كثيراً من الوقت الذي أضاعه عندما كان شاباً، وكيف أنه لم ينجز سوى القليل. ولكن، لا يمكن أن تؤخذ هذه الشكاوى على ظاهرها؛ لأنه لم ييأس قط. وبالرغم من ضعفه الجسدي وتعرّضه لنوبات من الاكتئاب، فإنه استمر في محاولات القيام بمساعٍ جديدة، وبقي يعمل على توسيع نطاق معرفته. لقد كان عنيداً، ولا يعرف التعب، وكانت لحظات الشك في النفس طريقته في دفع نفسه إلى الأمام، وتذكير نفسه بقصر الوقت المتبقي له. كان لديه وعي عميق من الشعور بالمصير، وبالهدف العام لأحواله الغريبة، هذا الهدف الذي كان عليه أن يُحقّقه عن طريق كتاباته.

والشيء الوحيد الذي جعل تلك السنوات العشرين تختلف نوعياً عن مثلها لدى شخص عادي هو شدّة انتباهه؛ فما فعله لم يكن فقط قراءة الكتب، وإنما النظر فيها جيداً، وتحليلها

تحليلاً دقيقاً، وتعلّم دروساً قيّمة منها، وتطبيقها على حياته الخاصة. فهذه القراءة كلها غرست في دماغه أساليب مختلفة أثّرت أسلوبه الخاص في الكتابة، يضاف إلى ذلك أن مخالطته الناس لم تكن مثل أيّ مخالطة؛ إذ كان يرهق نفسه في سبيل فهم جوهر الآخرين، والكشف عن دوافعهم السرية، ولم يكن تحليله لنفسه مجرد تحليل روتيني مثل الذي يقوم به علماء النفس، بل ذهب عميقاً في مختلف مستويات وعيه التي وجدها في نفسه، بحيث مكّنته من وضع رؤى بخصوص أداء الذاكرة مقدمة لاكتشافات لاحقة في علم الأعصاب. وحين ترجم لم يكن عمله مثل أيّ ترجمة، ولكنه سعى إلى أن يسكن ذهن روسكين نفسه. وأخيراً، وصل به الأمر إلى أن يستخدم وفاة والدته في إثراء تنمية قدراته. ومع اختفائها من حياته كان عليه أن يُخرج نفسه من الاكتئاب عن طريق الكتابة، وأن يجد وسيلة لإعادة بناء المشاعر بينهما في الرواية التي كان يكتبها. ومثلما وصف ذلك في وقت لاحق، فقد كانت هذه التجارب كلها مثل البذور المزروعة، وما إن بدأ بكتابة روايته حتى بدا مثل البستاني الذي يرعى ثمار النباتات التي ترسّخت جذورها قبل سنوات عدّة ثم يقطفها.

لقد استطاع بروسست بجهوده الخاصة تحويل نفسه من التلميذ إلى كاتب ناضج ومترجم، ومنها إلى روائي يعرف عمّاً سيكتب، وأي صوت سيكتب به، وكيف يتناول الموضوع الذي سيكتب فيه. وفي المرحلة التي تلت بدء كتابة الرواية خضع بروسست لعملية تحوّل ثالثة؛ إذ بدأت الذكريات والأفكار تفيض في ذهنه. حتى مع استمرار الرواية بالتوسّع كان يستطيع أن يستشعر شكله العام والعلاقات والروابط بين القطع الفسيفسائية للمنظر العام. كانت هذه الرواية الهائلة زاخرة بالحياة، وديناميكية تتنفس كلها في داخله، وكان هو نفسه يعيش داخل شخصيات الرواية وداخل الشريحة الكاملة من المجتمع الفرنسي التي يكتب عنها. والأهم من ذلك أنه كان في داخل الراوي (الذي هو بروسست نفسه)، وحين نقرأ روايته نشعر أننا نعيش أجواءها فعلاً من الداخل، نشعر بأفكار الشخص الآخر وبأحاسيسه. لقد كان قادراً على تحقيق هذا الهدف عن طريق قدراته الحدسية التي اكتسبها بعد حصيلة (30) عاماً من العمل الدائم والتحليل.

مثلما فعل بروسست، يتعيّن عليك أنت أيضاً أن تحافظ على الشعور بالمصير، وأن تبقى على اتصال مستمر بهذا الشعور؛ فأنت شخص فريد، ولديك هدف فريد يناسب تفردك،

وعليك أن تنظر إلى كل نكسة، أو فشل، أو مشقة بوصفها تجربة واختبارًا على طول الطريق، أو بذورًا تزرعها لكي تجني ثمارها فيما بعد إذا كنت تعرف كيف تزرعها. لا توجد لحظة ضائعة إذا كنت تُحسِّن الانتباه، وتتعلم الدروس من كل تجربة. وما دمت منكبًا باستمرار على الموضوع الذي يناسب ميولك وتتناوله من عدّة زوايا مختلفة فإنك تكون بذلك قد وفّرت تربة خصبة لهذه البذور لتترسّخ.

قد لا ترى هذه العملية في الوقت الحاضر، ولكنها تحدث، وإذا لم تفقد اتصالك بمهمة حياتك، فإنك ستتخذ - لا شعوريًا - الخيارات الصحيحة في حياتك، ومع مرور الوقت سيأتي الإتقان إليك. إن هذه القوى الحدسية (البدئية) رفيعة المستوى التي نتحدّث عنها لها جذور في تطوُّرنا بوصفنا مخلوقات مفكّرة، وفهمها مفيد جدًّا، وهي غاية تتصل اتصالًا وثيقًا بالعصر الذي نعيش فيه.

جذور الحدس الإبداعي

تُعَدُّ السرعة بالنسبة إلى الحيوانات جميعها العامل الحاسم في الصراع على البقاء، ويمكن أن تكون - لبضع ثوانٍ - هي الفارق ما بين تجنُّب الحيوانات المفترسة أو لقاء الموت. لقد طوّرت الكائنات الحية عددًا من الغرائز المعقّدة والدقيقة لتتناغم مع هذه السرعة؛ فالاستجابة الغريزية تكون فورية، وتشيرها دائمًا مُنبّهات مُحدّدة، ونجد أحيانًا أن بعض الكائنات الحية تمتلك غرائز متناهية في الدقة والضبط بما يتناسب مع الظروف والبيئة بحيث تبدو أشبه بمن يتمتع بقدرات خارقة، فمثلًا

الدبور الصياد «أموفيليا» تملك إنائه القدرة على لدغ ضحاياها المختلفة (عناكب، خنافس، يرقات) بسرعة خاطفة، وفي المكان المناسب بدقة عالية تضمن شلّ حركة الضحية من دون قتلها. ثم تضع بيضها في الجسد المشلول؛ لتوفّر ليرقاتها بعد التفقيس لحمًا طازجًا تتغذّى به أيامًا عدّة. في كل نوع من هذه الضحايا يختلف المكان الذي يجب لدغه لتحقيق النتيجة المطلوبة. على سبيل المثال، فإنها تلدغ اليرقات في ثلاثة مواضع لشلّ حركتها. ولمّا كانت هذه العملية حساسة جدًّا فإن أنثى الدبور الصياد كانت أحيانًا

تخطئ الهدف فتموت الضحية، ولكن معدل نجاحها عمومًا مرتفع إلى الحد الذي يضمن بقاء نسلها. في هذه العملية لا يوجد وقت لتحديد نوع الضحية والمكان المناسب للدغ. إنها تحدث فورًا كما لو أن لدى أنثى الدبور إحساسًا بالمراكز العصبية لضحاياها، وقدرةً على الشعور بها من الداخل.

وبالمثل، فقد كان لأسلافنا البدائيين مجموعة من الغرائز الخاصة بهم، ولا تزال كثير منها مدفونة في داخلنا حتى يومنا هذا، ولكن مع التحول البطيء لأسلافنا نحو قوى العقل والمنطق كان عليهم أن يعزلوا أنفسهم عن ظروفهم القريبة، ويُقللوا من اعتمادهم على الغريزة. ولملاحظة أنماط السلوك في الحيوانات التي يتبعونها من أجل الصيد كان عليهم أن يربطوا بينها وبين أفعال أخرى لم تكن ظاهرة لهم بوضوح فورًا، وكان عليهم أيضًا إجراء حسابات مماثلة حين يتعلق الأمر بتحديد مصادر الغذاء، أو اجتياز مسافات طويلة سيرًا على الأقدام. ومع هذه القدرة على فصل أنفسهم عن البيئة، وعلى ملاحظة أنماط مُحددة، استطاعوا اكتساب قدرات عقلية هائلة، ولكن هذا التطور كان مصحوبًا بمخاطر كبيرة، هي الزيادة الكبيرة في المعلومات التي يحتاج الدماغ إلى معالجتها، وما يترتب على ذلك من فقدان السرعة في الاستجابة للأحداث.

إن هذا البطء في الاستجابة كان سيؤدي إلى هلاك النوع البشري لو لم يُطور دماغ الإنسان قدرات عقلية عوضًا عنه؛ فالسنوات التي أمضاها أسلافنا في تتبع حيوانات معينة ومراقبة محيطهم أكسبتهم إحساسًا ببيئتهم بكل ما تشتمل عليه من تعقيدات. وبإحاطتهم بأنماط سلوك الحيوانات المختلفة أصبح بإمكانهم توقع مكان هجوم الحيوانات المفترسة وزمانه، واستشعار الأماكن التي يمكنهم العثور فيها على صيد جيد، وباتوا يعرفون جيدًا المسافات البعيدة التي يقصدونها ويجتازونها بسرعة وفاعلية من دون أن يُكلفوا أنفسهم عناء الحسابات. وبعبارة أخرى، لقد طوّروا شكلاً بدائيًا من الحدس (الحس البدهي)، وعن طريق الخبرة والممارسة المستمرة استعاد أسلافنا بعض السرعة والاستجابة الفورية التي فقدوها، وأصبحوا قادرين على الاستجابة بصورة حدسية بدلًا من الاستجابة الغريزية. وبهذا المستوى كان الحدس أقوى من الغريزة في عدم ارتباطه بحال مُحددة أو مُحفّز معين، ولكن كان يمكن تطبيقه على نطاق أوسع من الأحوال والأفعال.

لم تكن أدمغة أسلافنا مثقلة بعدُ بكل المعلومات التي جاءت عن طريق اللغة أو من التعقيدات المصاحبة للعيش في مجموعات كبيرة، بيد أنهم استطاعوا عن طريق تفاعلهم المباشر مع بيئتهم المحيطة أن يُطوِّروا شعورًا بدهياً (حدسياً) في غضون بضعة سنوات. ولكن بالنسبة لنا، ونظرًا إلى أننا نعيش في بيئة أكثر تعقيدًا، فإن هذه العملية قد تستغرق ما بين (15-20) عامًا. ومع ذلك فإن حدسنا رفيع المستوى تعود جذوره بقوة إلى نسختنا البدائية.

إن الحدس - في مستواه البدائي أو الرفيع - مدفوع أساسًا من الذاكرة. فعندما نتلقّى المعلومات من أي نوع فإننا نُخزِّنُها في شبكات متعلقة بالذاكرة في الدماغ، ويعتمد استقرار هذه الشبكات ومثابرتها على التكرار، وحدّة الواقعة (التجربة)، ومدى عمق الانتباه الذي نوليه لما يحصل أمامنا. فإذا كنّا نستمع بنصف آذاننا إلى درس عن مفردات في لغة أجنبية فإن من غير المحتمل أن نحفظ به في أيّ مستوى. ولكن، إذا كنّا في بلد يتحدّث هذه اللغة فإننا سنسمع تلك المفردات والكلمات تطرق آذاننا في سياقات مختلفة، وسنميل إلى إيلائها اهتمامًا أعمق لأننا بحاجة إلى ذلك، وستكون مسارات تتبّع الذاكرة أكثر استقرارًا.

تبعًا للنموذج الذي وضعه عالم النفس كينيث باورز، فكلما واجهنا مشكلة ما (مثل: الحاجة إلى تعرّف وجه شخص سبق أن شاهدناه، أو تذكّر كلمة أو عبارة) تمكّننا من تفعيل الشبكات المتعلقة بالذاكرة داخل الدماغ لتوجيه عملية البحث عن الجواب ضمن مسارات معيّنة. يحدث هذا كله دون مستوى الوعي، وعندما تنشط شبكة معيّنة إلى مستوى كافٍ فإننا ندرك فجأة اسم الشخص صاحب ذلك الوجه، أو العبارة المناسبة التي كنّا نبحث عنها. وهذه أمثلة على النماذج ذات المستوى المنخفض من الحدس التي تأتي إلينا في حياتنا اليومية؛ ولا يمكننا إعادة بناء الخطوات التي توصلنا بها إلى تعرّف وجوه الأشخاص وتذكّر أسمائهم.

إن الأشخاص الذين يقضون سنوات في دراسة موضوع أو مجال معيّن يتكوّن لديهم عدد كبير من هذه الشبكات والقنوات المتعلقة بالذاكرة، بحيث تصبح أدمغتهم منشغلة باستمرار في البحث عن أجزاء مختلفة من المعلومات، واكتشاف الروابط بينها. وحين تواجههم مشكلة على مستوى عالٍ فإن عملية البحث هذه تنشط في مئات من الاتجاهات

في منطقة ما دون الإدراك الواعي، مُسترشدةً بشعور بدهي عن مكنم الجواب، وتصبح أنواع الشبكات جميعاً مُفعّلةً، وتطفو الأفكار والحلول فجأةً إلى السطح، فيستقر منها ما يبدو أنه مثمر ومناسب جدًّا في الذاكرة، ليصار إلى اتخاذ إجراءات بخصوصها. وبدلاً من اللجوء إلى الاستدلال المنطقي خطوةً خطوةً للوصول إلى جواب، نجد أن هذا الجواب يقتحم منطقة الوعي مصحوباً بإحساس بالفورية.

إن هذا العدد الهائل من الخبرات والشبكات المتعلقة بالذاكرة المترسّخة في أذهان الذين بلغوا مرحلة الإتقان يسمح لهم باستكشاف منطقة واسعة النطاق تغطي الواقع نفسه بأبعاده وشعوره، وتستوعب الديناميكية نفسها. فبالنسبة إلى شخص مثل أستاذ الشطرنج بوبي فيشر فإن عدد المرات التي لعب فيها مجموعات متماثلة من الأوضاع والظروف، وشهد فيها مختلف الحركات وردود الفعل عليها من خصومه المتعددين، كل ذلك أسهم إسهاماً فاعلاً في إيجاد رسوم ذاكرة قوية؛ إذ مكّنه ذلك من استيعاب أعداد هائلة من الأنماط واستنباطها حتى أصبحت راسخة في أعماقه. وفي مرحلة ما من تطوُّره انصهر ذلك كله معاً لتكوين إحساس لدينامية الشاملة للعبة الشطرنج، فلم يعد يرى تحركات بسيطة على رقعة الشطرنج ويتذكّر حركات مضادة لها مثلما كان يفعل سابقاً، بل أصبح قادراً على الرؤية وتذكّر سلاسل طويلة من التحركات المحتملة التي قدّمت نفسها بوصفها حقولاً من القوة تجتاح الرقعة كلها. وبامتلاكه هذا الشعور الجديد أصبح قادراً على الإيقاع بخصومه وإسقاطهم في الفخ قبل أن يدركوا ما يحدث لهم، ليُجهز عليهم في أسرع وقت وبدقة عالية تماماً مثلما تلدغ أنثى الدبور الصياد ضحاياها.

في بعض المجالات مثل الرياضة والحروب، أو أيّ مسعى تنافسي يحكمه الوقت، فإن قرارات أصحاب الرياضة المؤسّسة على الحدس تكون أكثر فاعلية من محاولة تحليل كل عنصر من العناصر ومعرفة أفضل الحلول. توجد الكثير من المعلومات التي يجب معالجتها في وقت قصير جدًّا. وبالرغم من أن قوة الحدس وُضعت أصلاً لسرعتها في الاستجابة الفورية فإنها قد أصبحت شيئاً يمكن تطبيقه في مجال العلوم أو الفنون، أو في أيّ مجال وحقل يوجد فيه عناصر معقّدة، ومن دون أن يكون الوقت عاملاً حاسماً فيه.

يتطلّب هذا المستوى الرفيع من الحدس - مثله مثل أيّ مهارة - ممارسة وخبرة. بدايةً، قد يكون حدسنا خافتاً بحيث لا نوليّه اهتمامنا أو ثقتنا. وقد تحدّث أصحاب الرياسة جميعاً ممن بلغوا منزلة الإتقان عن هذه الظاهرة، لكنهم مع مرور الوقت تعلّموا أن يلاحظوا وميض هذه الأفكار السريعة التي تردّ إليهم، وتعلّموا أيضاً كيف يتصرفون بناءً على هذه الأفكار، ويتحقّقون من صحتها. فبعض هذه الأفكار قد لا يكون وراءها طائل، ولكن بعضها الآخر يؤدي إلى رؤى هائلة. ومع مرور الوقت وجد أصحاب الرياسة أنهم يستطيعون استدعاء المزيد من فيض هذا الحدس ذي المستوى الرفيع الذي يرسل وميضه إلى مختلف أنحاء الدماغ. إن القدرة على بلوغ هذا المستوى من التفكير بصورة اعتيادية منتظمة مكّنتهم من دمجهم بعمق في أشكال تفكيرهم العقلاني.

تذكّر: إن هذا النوع من الذكاء تطوّر من أجل مساعدتنا على معالجة طبقات معقّدة من المعلومات، واكتساب إحساس بالكل. وفي عالم اليوم باتت الحاجة إلى تحقيق هذا المستوى من التفكير أكثر أهمية من أيّ وقت مضى. علمًا بأن متابعة أيّ مسار وظيفي في هذه الأيام أصبح صعباً، ويتطلّب الكثير من الصبر والانضباط، في ظل وجود الكثير من العناصر التي يجب إتقانها. علينا أن نتعلّم معالجة الجوانب التقنية، والمناورات والحيل الاجتماعية والسياسية، وردود فعل الجمهور تجاه عملنا، والصورة المتغيّرة باستمرار في مجال عملنا. وعندما نضيف إلى هذا الكمّ المخيف حقاً من الدراسة الكمّ الهائل من المعلومات المتوافرة الآن، التي يجب أن نلّمّ بها جميعاً، فإن ذلك كله يبدو أبعد من قدراتنا.

إن ما يحدث للكثيرين ممّا عندما نواجه هذا التعقيد هو الشعور بالإحباط على نحو غير ملحوظ قبل أن نحاول فعل أيّ شيء، وهو ما يدفع الكثير من الأشخاص إلى الانسحاب في هذه البيئة المحمومة، مستمرّين الراحة والسهولة، فيزداد نزوعهم إلى الأفكار المبسطة عن الواقع والطرائق التقليدية في التفكير، ويقعون فريسة للصيغ المغرية التي تقدّم لهم معرفة سريعة وسهلة، ويفقدون ذوق تطوير المهارات التي تتطلّب وقتاً وشخصية مرنة (يمكن لذلك أن يجرح كبرياءنا في المراحل الأولية لتعلّم المهارات؛ لأنها ستكشف عن عيوبنا ومواطن قصورنا). لا شك أن هؤلاء الأشخاص سيصبحون العالم، ويلومون الآخرين

على مشكلاتهم، وسيجدون كثيرًا من المبررات السياسية يُعلّقون عليها انسحابهم، في حين أنهم - حقيقةً - لا يستطيعون تحمّل التحديات الناجمة عن التعامل مع التعقيد. وفي محاولتهم تبسيط حياتهم النفسية فإنهم سيفصلون أنفسهم عن الواقع، ويُعيدون جميع القدرات التي طوّرها الدماغ البشري طوال ملايين السنين.

إن هذه الرغبة في كل ما هو بسيط وسهل هي داء يصيب كل واحد منّا، بطرائق تخفى علينا في كثير من الأحيان. والحلُّ الوحيد هو ما يأتي: يجب أن نتعلّم كيفية تهدئة القلق الذي نشعر به كلما واجهنا أيّ شيء يبدو معقّدًا أو غير منظم. وفي رحلتنا من التلمذة المهنية إلى الإتقان يجب علينا أن نتعلّم بصبر مختلف المهارات المطلوبة، وأن ننظر إلى الأمام بعيدًا جدًّا ونستبق الأمور. وفي أوقات الأزمات علينا أن ننمّي عادة المحافظة على هدوئنا وعدم المبالغة في ردّ الفعل. وفي حال كان الوضع معقّدًا والآخرون منشغولون في البحث عن إجابات بسيطة مقصورة على الأسود والأبيض، أو على الردود التقليدية المعتادة، فإن علينا أن نتخذ موقفًا واضحًا بمقاومة هذا الإغراء، وعلينا أيضًا أن نحافظ على «قدرتنا السلبية»، وعلى درجة من التجرد والموضوعية. إن ما نسعى إليه هو كسب التسامح تجاه لحظات الفوضى، بل محاولة تذوّقها، وتدريب أنفسنا على تقبُّل العديد من الاحتمالات أو الحلول. فنحن نتعلّم كيفية إدارة القلق، وهو مهارة أساسية في هذه الأوقات المضطربة.

وللانسجام مع ضبط النفس هذا يجب علينا فعل كل ما في وسعنا لتعزيز قدرة ذاكرتنا لتصل الحد الأعلى (تمثّل واحدة من أهم المهارات في بيئتنا ذات التوجّه التكنولوجي). أمّا المشكلة التي جلبتها لنا التكنولوجيا فهي زيادة كمّ المعلومات التي بحوزتنا، ولكنها - في الوقت نفسه - أوهنت ببطء قدرة ذاكرتنا على الاحتفاظ بهذه المعلومات وتذكُّرها. فالمهام التي كانت تُعدُّ تمارين عقولنا (مثل: تذكُّر أرقام الهواتف، والقيام بالعمليات الحسابية البسيطة، والتنقل بين المدن وتذكُّر أسماء الشوارع فيها) أصبحت التكنولوجيا تقوم بها نيابةً عنّا، وهو ما جعل الدماغ - شأنه في ذلك شأن أيّ عضلة - يصاب بالترهل والإهمال. وللتصدي لهذا، لا ينبغي الركون إلى التسلية واللهو في أوقات فراغنا، بل يجب إشغال أنفسنا بهوايات مفيدة (لعبة، عزف على آلة موسيقية، تعلّم لغة أجنبية) تجلب لنا المتعة، وتُقدِّم لنا

- في الوقت نفسه- فرصة لتعزيز قدرات الذاكرة ومرونة الدماغ، يمكننا أن نُدرّب أنفسنا على معالجة كمّ كبير من المعلومات من دون الشعور بالقلق أو الإرهاق.

إن السعي بإخلاص لهذا الاتجاه ومنحه ما يلزم من وقت سيُعزّز القدرات الحدسية، ويصبح ذلك الكائن الحي الكبير دائم التغيير الذي هو مجال عملنا مستوعبًا ومستقرًا في داخلنا. إن امتلاك جزء من هذه القدرة سيُميّزنا فورًا من الآخرين الذين يجدون أنفسهم مندحرين ومنهكين لمحاولتهم تبسيط ما هو معقّد أصلًا، ويجعلنا قادرين على الاستجابة بصورة أسرع وأكثر فاعلية من غيرنا. وما بدا لنا فوضويًا غير منتظم من قبل سيبدو وضعًا سلسًا ذا دينامية خاصة يمكننا الإحساس بها والتعامل معها بسهولة نسبية.

ما يثير الاهتمام حقًا هو ملاحظة أن الكثير من أصحاب الرياسة الذين بلغوا مرتبة الإتقان واكتسبوا هذه القدرة الحدسية رفيعة المستوى سيظهرون بروح مرحة وعقل يافع متوقد مع مرور السنين، وهو أمر ينبغي أن يكون مشجّعًا لنا جميعًا. إنهم لا يحتاجون إلى بذل قدر كبير من الطاقة لفهم الظواهر، ويمكنهم التفكير بطريقة خلاقية وبسرعة متزايدة، ويمكنهم أيضًا الحفاظ على العفوية والسيولة العقلية بصورة جيدة في سنّ السبعين وما بعدها إذا لم يوهنهم المرض. ومن هؤلاء: الفنان الرئيس هاكوين الذي أنجز لوحات فنية في الستينيات من عمره تُعدُّ الآن من أعظم الأعمال في هذا العصر وتشتهر بعفوية التعبير. والمخرج الإسباني لويس بونويل الذي ازدادت أفلامه السريالية ثراءً وسحرًا في الستينيات والسبعينيات من عمره، بيد أن جوهر هذه الظاهرة وعنوانها يجب أن يكون بنيامين فرانكلين.

كان فرانكلين على الدوام مراقبًا حادّ البصر والبصيرة فيما يخص الظواهر الطبيعية، ولم تزد هذه القدرات لديه إلا قوة بمرور السنين. ففي العقدين: السابع والثامن من عمره صدرت عنه سلسلة من التكهّنات تُعدُّ الآن سابقة لوقتها على نحوٍ خارق للطبيعة، بما فيها أفكاره المتقدّمة في مجال الصحة والطب، والطقس، والفيزياء والجيوفيزياء، والتطوُّر، واستخدام الطائرات لأغراض عسكرية وتجارية، وغير ذلك. ومع تقدّمه في السنّ أخذ يُطبّق إبداعاته الشهيرة للتخفيف من آثار ضعفه الجسدي المتزايد. وفي محاولته تحسين بصره ونوعية حياته فقد عمد إلى اختراع النظارة، واخترع أيضًا ذراعًا ميكانيكيةً متمدّدةً للتغلب

على عدم قدرته الوصول إلى الكتب التي في الرفوف العليا من مكتبته. ولأنه كان يحتاج إلى نسخ من كتاباته ولا يرغب في ترك منزله؛ فقد اخترع طابعة أسطوانية دوّارة يمكنها عمل نسخة دقيقة من المستند في أقل من دقيقتين. وفي سنواته الأخيرة كانت لديه نظرة ثاقبة في السياسة ومستقبل أمريكا جعلت الناس يعتقدون أنه شخص خارق يملك قدرات سحرية. وكان وليام بيرس (المنسوب إلى المؤتمر الدستوري) قد التقى فرانكلين قبل وفاته بوقت قليل، فكتب عنه قائلاً: «الدكتور فرانكلين معروف عنه جيداً أنه أعظم فيلسوف في الوقت الحاضر؛ فقد كان يعي جيداً عمليات الطبيعة جميعها... بلغ اثنين وثمانين عاماً ولا يزال يمتلك نشاطاً عقلياً يضاها ما يملكه شاب في سن الخامسة والعشرين».

إنه لمن المثير للاهتمام أن نتكهّن بعمق الفهم الذي قد يصل إليه مثل هؤلاء الرؤساء لو أنهم عاشوا مدة أطول، ولعلنا مستقبلاً، مع ارتفاع معدلات الأعمار، نشهد ميلاد نماذج لأمثال بنيامين فرانكلين في أعمار متقدمة.

العودة إلى الواقع*

قد يتجادل الناس طويلاً في مفهوم الواقع وماهيته، ولكن دعونا نبدأ تعريفنا بحقيقة سهلة بسيطة لا يمكن إنكارها: قبل (4) بلايين** سنة بدأت الحياة على هذا الكوكب في صورة خلايا بسيطة، وهذه الخلايا - ربما كانت خلية واحدة على وجه الخصوص - هي الأصل المشترك لمختلف أشكال الحياة التي تلت ذلك. ومن هذا المصدر الأوحده ظهرت مختلف أنواع الحياة وفروعها. وقبل نحو (1,2) بليون سنة ظهرت أول المخلوقات متعددة الخلايا، وقبل (600) مليون سنة ظهر ما يمكن وصفه بأنه أعظم تطوّر عرفته الكائنات الحية جميعها، وهو الجهاز العصبي المركزي الذي يُعدُّ نقطة الانطلاق التي أدت في نهاية المطاف إلى العقل الذي نملكه الآن. ومن الانفجار الكمبري للحياة قبل نحو (500) مليون سنة ظهرت أولى الكائنات الحية البسيطة، تلتها الفقاريات الأولى. وقبل نحو

* نظرية التطور بصورتها الموصوفة هنا هي من النظريات التي أصبحت نكتة علمية سخيفة لا تستند إلى أي دليل واقعي محسوس، أما نحن المسلمين فنعتقد بأن الله عز وجل خلق الإنسان بأحسن تقويم. نضيف الآية 5 من سورة الحج

** البليون: ألف مليون، ويُسمى أحياناً المليار. [المترجم]

(360) مليون سنة شاهدنا أول آثار على الأرض للمخلوقات البرمائية، ومنذ (120) مليون سنة ظهرت الثدييات الأولى، ثم ظهرت تفرعات جديدة للثدييات قبل نحو (60) مليون سنة، ورأينا علامات ظهور أولى القردة العليا التي انحدرنا منها مباشرة. وقد وصلت أقرب أسلاف الإنسان قبل نحو (6) ملايين سنة، وبعد (4) ملايين سنة ظهر أحدث أسلافنا وهو الإنسان منتصب القامة، وقبل مئتي ألف عام فقط ظهر الإنسان الحديث تشريحياً الذي يتساوى حجم مخه - مع بعض الزيادة أو النقصان - مع حجم المخ الذي نملكه الآن.

في هذه السلسلة المعقّدة جداً من الظروف يمكننا أن نُحدّد - في بعض المراحل - سلفاً وحيداً تفرّع منه البشر (أول الخلايا، ثم الحيوانات البسيطة، ثم الثدييات، ثم الرئيسيات). وقد تكهن بعض علماء الآثار بأن أنثى واحدة هي السلف الذي انحدر منه الجنس البشري المعاصر. وبالارتقاء في السلسلة المتخلّفة في ذلك الوقت يظهر بوضوح أن ما نحن عليه اليوم - بحسب تكويننا الفسيولوجي - يرتبط ارتباطاً وثيقاً بكل واحد من أولئك الأسلاف الأصليين حتى يصل إلى الخلايا الأولى من الحياة. ولمّا كانت أشكال الحياة كلها قد انبثقت من هذه البداية المشتركة فإنها جميعاً مترابطة بصورة أو أخرى، ونحن - البشر - مشمولون عن كثب في هذه الشبكة، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها.

لنُسمِّ هذا الترابط بين الحياة «الواقع النهائي». فيما يتعلق بهذا الواقع يميل العقل البشري إلى الذهاب في أحد اتجاهين؛ الأول: يميل العقل إلى الابتعاد عن هذا الترابط، والتركيز على التمييز بين الأشياء، أخذاً الأشياء خارج سياقها لتحليلها بوصفها كيانات منفصلة. وقد تؤدي الحالات المفردة من هذا الاتجاه إلى أشكال مُتخصّصة جداً من المعرفة. وفي عالم اليوم يمكننا ملاحظة الكثير من علامات هذا الميل، مثل: الانقسامات الميكروسكوبية الضيّقة بين حقول المعرفة في جامعاتنا، والتخصصات الدقيقة في العلوم. في الثقافة عموماً سيبدأ الناس يُميّزون بأدق المقاييس بين الموضوعات المرتبط بعضها ببعض أو المتداخلة، وينشغلون بمجادلات لا نهاية لها عن أوجه الاختلاف بينها، ويُميّزون المجتمع العسكري من المدني بالرغم من أن هذا التمييز لا يسهل تحديده في المجتمع الديمقراطي (لعل إبقاء الناس ومجالات الدراسة منفصلة بهذه الصرامة يُعدُّ أقوى حيلة

بيد الفئات التي تملك السلطة، وهو نسخة من قاعدة «فَرَّقْ تَسُدَّ». في هذا المستوى من التفكير يضيع الإحساس بالترابط بين الحياة والظواهر، وفي ظل الإفراط في التخصص تصبح الأفكار غريبة جداً ومنقطعة عن الواقع.

الاتجاه الثاني: توجد نزعة مقابلة في الدماغ تميل إلى الرغبة في الربط بين الأشياء كلها، ويحدث هذا للأفراد الذين أوغلوا في المعرفة بعيداً إلى الحد الذي تبدأ فيه هذه الارتباطات بالظهور في خواتمهم نابضة بالحياة. وبالرغم من أن هذه النزعة يسهل ملاحظتها من أصحاب الرياسة الذين بلغوا مرتبة الإتقان فإن التاريخ أتى على ذكر بعض الحركات والفلسفات التي انتشرت في ثقافتها - على نطاق واسع - هذه العودة إلى الواقع لتصبح جزءاً من روح العصر، فمثلاً انتشرت في العالم القديم الطاوية في الشرق، والرواقية في الغرب، وهما حركتان استمر تأثيرهما قرونًا عدَّة. فالطاوية تشير إلى مفهوم الطريق، والرواقية تشير إلى مفهوم العقل الأول، وهو مبدأ ترتيب الكون الذي يربط بين الكائنات الحية جميعها. وقد عبَّر عنه ماركوس أوريليوس بقوله: «حافظ على تذكير نفسك بالطريق الذي يربط بين الأشياء، وباتصال بعضها ببعض. إن الأشياء جميعها يرتبط كل منها بالآخر بتجانس وانسجام. وما من حادث يحدث إلا نتيجة لحادث آخر. فالأشياء تشدُّ وتجذب بعضها بعضاً، وتتنفس معاً، وكلها وحدة واحدة».

لعل أبلغ مثال على ذلك هو عصر النهضة الذي تميَّز بحركة ثقافية كان مثلها الأعلى «الإنسان العالمي»، وهو الشخص الذي نجح في الربط بين فروع المعرفة جميعها.

ربما نشهد اليوم مؤشرات مبكرة للعودة إلى الواقع؛ نهضة أخرى في شكل حديث. ففي مجال العلوم مثلاً، بدأت البذرة الأولى مع فارداي، وماكسويل، وآينشتاين، الذين ركَّزوا على العلاقات بين الظواهر ومجالات القوة بدلاً من الجزيئات الفردية. وبمعنى أوسع، يسعى الكثير من العلماء الآن إلى ربط تخصصاتهم بالتخصصات الأخرى، مثل ربط علم الأعصاب بالعديد من التخصصات الأخرى. وقد رأينا بوادر هذا التوجه أيضاً في الاهتمام المتزايد لتطبيقات نظريات معقَّدة على مجالات متباينة، مثل: الاقتصاد، وعلم الأحياء، وأجهزة الحاسوب. ويمكننا أن نرى ذلك في توسيع نطاق تفكيرنا إلى نظم متكاملة بوصفه

وسيلة لوضع تصوُّر صادق للتفاعلات الحيوية في الطبيعة، ويمكننا أن نرى ذلك أيضًا في مجال الصحة والطب؛ في النهج المماثل الذي يتبعه الكثيرون في النظر إلى الجسم نظرة كلية شمولية. إن هذا الاتجاه هو المستقبل؛ لأن الغرض من الوعي نفسه كان دائمًا - ولا يزال - هو ربطنا بالواقع.

بوصفنا أفرادًا يمكننا أن نشارك في هذا الاتجاه عن طريق السعي إلى الإتقان. وفي تلمذتنا المهنية مثلًا يجب أن نبدأ العمل بصورة طبيعية عن طريق تعلُّم الأجزاء وتعرُّف الفوارق المختلفة (النهج الصحيح والخطأ في العمل، المهارات الفردية التي يجب إتقانها، والتقنيات والفنون الخاصة، القواعد والتقاليد المتبعة التي تحكم المجموعة). ففي النهج الإبداعي الفاعل النشط بدأنا إذابة هذه الفوارق محاولين تغيير القواعد والتقاليد المتبعة وتعديلها بما يتناسب مع مقاصدنا. وفي الإتقان نكون قد قطعنا قطر دائرة كاملة، وعدنا إلى الشعور بالكل. إننا نستشعر الروابط والاتصالات، ونرحب بالتعقيد الطبيعي للحياة الذي يجعل الدماغ يتوسَّع لأبعاد الواقع بدلًا من التقلص إلى أضيق التخصصات. هذه هي النتيجة الحتمية للانغماس العميق في حقل من حقول المعرفة أو النشاط. وفي هذا السياق، يمكننا تعريف الذكاء بأنه التحرك نحو التفكير الأكثر ارتباطًا بالسياق، والأكثر استشعارًا بالروابط بين الأشياء. لننظر إليه على النحو الآتي:

التمايز النهائي الذي يحدث بينك وبين العالم. هناك الداخل (خبرتك الذاتية) وهناك الخارج. لكنك في كل مرة تتعلَّم فيها شيئًا جديدًا فإن عقلك يعتريه تغيير بفعل هذا الربط الجديد. وتجربتك لأيِّ شيء يحدث في هذا العالم هي الأخرى تُحدِّث تغييرًا ماديًا في الدماغ. إن الحدود التي تفصل بينك وبين العالم هي أكثر سيولة مما تتصوَّر. وحين تتحرك نحو الإتقان يطرأ تغيير جذري على عقلك بفعل سنوات الممارسة والتجارب الفاعلة. لم يعد الأمر نظامًا بسيطًا تكوَّن بفعل السنوات المتعاقبة. إن دماغ أصحاب الرياضة هو دماغ غني بالترابط بصورة تشابه العالم المادي، فيصبح نظامًا شاملًا حيويًا ترتبط فيه مختلف أشكال التفكير والاتصال بعضها ببعض، وإن هذا التشابه المتزايد بين الدماغ والحياة نفسها من حيث التعقيد يُمثِّل العودة النهائية إلى الواقع.

إستراتيجيات تحقيق الإتقان

«العقل البدهي هو هبة مقدسة، والعقل الرشيد هو خادم مخلص. لقد أوجدنا مجتمعاً بات يحترم الخادم بعدما أهمل الهبة ونسيها».

- ألبرت آينشتاين

ليس الإتقان من نتاج العبقرية أو الموهبة، بل هو نتيجة من عاملي الوقت والتركيز المُكثَّف حين يُطبَّقان على مجال معيَّن من المعرفة. ولكن، يوجد عامل آخر، وهو العنصر المجهول الذي يمتلكه حتماً الأشخاص الذين حقَّقوا الإتقان وبلغوا الرياسة، إنه عنصر يبدو خفياً (باطنياً)، ولكنه في متناول الجميع. وأياً كان مجال النشاط الذي نمارسه فإنه يوجد عموماً مسار مقبول للوصول إلى الأعلى، وهو المسار الذي اتَّبَعه الآخرون. ولأننا مخلوقات من طبعها اتِّباع العادات والأعراف؛ فإن معظمنا يختار هذا الطريق التقليدي، بيد أن الذين بلغوا منزلة الرياسة يحظون بنظام توجيه داخلي فاعل إلى جانب تمتعهم بمستوى عالٍ من الوعي الذاتي، فما كان يناسب غيرهم في الماضي لا يناسبهم، وهم يدركون أن محاولة وضع أنفسهم في القالب التقليدي سيُفْضي إلى طمس أرواحهم، وعدم وصولهم إلى الواقع الذي يسعون إليه.

وتأسيساً على ذلك، فلا مناص من أن أصحاب الرياسة هؤلاء سيَتخذون - مع تقدُّمهم على مسارهم المهني- خيارهم في لحظة حاسمة من حياتهم؛ وهو العزم على شق طريقهم الخاص بهم، وهو طريق يراه الآخرون غير تقليدي، ولكنه طريق يلائم روحهم وإيقاعهم، ويُقربهم إلى اكتشاف الحقائق الخفية للأشياء في حقول دراستهم. إن هذا الاختيار المهم يتطلَّب ثقة بالنفس ووعياً ذاتياً، وهو العامل المجهول اللازم لتحقيق الإتقان. وفيما يأتي أمثلة على هذا العامل المجهول في أثناء عمله والخيارات الإستراتيجية التي يؤدي إليها. علماً بأن الهدف من الأمثلة هو إظهار أهمية هذه الميزة، وكيف يمكننا مواءمتها مع أحوالنا الخاصة:

1. كن على اتصال ببيئتك (القوى البدائية)

لعل أكثر إنجازات الملاحة البشرية البحرية أهميةً وغموضاً تلك الرحلات التي قام بها السكان الأصليون في البقعة المعروفة باسم أوقيانوسيا. تتألَّف هذه المنطقة من جزر

ميكرونيزيا، وميلانيزيا، وبولينيزيا، وتُمثّل نسبة المياه فيها نحو (99,8) في المئة. اعتاد سكان أوقيانوسيا -على مدار قرون عدّة- التتقل والإبحار بمهارة في المساحات الشاسعة بين الجزر، وتمكّنوا قبل نحو (1500) عام من السفر عدّة آلاف من الأميال إلى جزيرة هاواي، وربما استطاعوا في وقت ما الإبحار إلى أجزاء من أمريكا الشمالية والجنوبية، كل ذلك باستخدام زوارق صغيرة تماثل في تصميمها وتقنياتها ما كان مُستخدماً في العصر الحجري. في القرن التاسع عشر اندثرت هذه المهارات القديمة في الإبحار لأسباب يُعزى معظمها إلى التدخل الغربي واختراع الخرائط والبوصلات، وظل مصدر مهاراتهم الخارقة في الغالب لغزاً. ولكن، في منطقة ميكرونيزيا المعروفة باسم جزر كارولين، حافظ بعض سكان الجزر على تقاليدهم القديمة حتى القرن العشرين، وقد أُصيب أول الغربيين الذين أبحروا معهم بالذهول والصدمة لهول ما شاهدوه.

كان سكان الجزيرة يبحرون في زوارق صغيرة مُزوّدة بأشرعة، وعلى متنها ثلاثة أشخاص أو أربعة، بحيث يتولّى أحدهم مهمة الرّبّان (الملاح الرئيس). ولكن، من دون وجود أيّ خرائط أو أدوات خاصة بالملاحة، وهو ما أربك الغربيين الذين رافقوهم، وجعلهم يصابون بحالة من القلق، ولا سيما أن الإبحار كان ليلاً ونهاراً (لم يكن توقيت الرحلة مهمّاً بالنسبة إلى سكان الجزر). كانت هذه الجزر مترامية الأطراف بحيث يبحر المرء أياماً قبل أن يلمح أرضاً. وأيّ انحراف قليل عن مسار الرحلة بسبب العواصف والتغيّرات المناخية يعني التيه عن الوجهة المقصودة، وربما الموت؛ لأن العثور على الجزيرة التالية في السلسلة يستغرق وقتاً طويلاً، فتكون إمدادات الطعام والماء قد نفدت قبل الوصول إليها. وبالرغم من ذلك كله فقد كانوا يشرعون في رحلتهم البحرية باسترخاء ملحوظ.

كان الرّبّان (الملاح الرئيس) أحياناً يجول ببصره إلى السماء ليلاً أو نهاراً لتحديد موقع الشمس، ولكنه كان غالباً يتحدّث إلى الآخرين، أو يُحدّق ببصره إلى الأمام مباشرة. وفي بعض الأحيان ينبطح أحد الرجال على بطنه في منتصف الزورق ثم يخبرهم بما استقاه من معلومات من تلك الوضعية. عموماً، كان منظرهم في الزورق يوحي بأنهم ركاب على متن قطار، حيث ينظرون بهدوء إلى المشاهد العابرة من حولهم. وكانوا أكثر هدوءاً في الليل،

وعندما يقتربون من وجهتهم - مثلما هو مفترض - يتأهبون قليلاً، ويتبعون مسارات الطيور في السماء، وينظرون بعمق إلى ماء المحيط، وأحياناً يغرفون منه غرفة يشمونها، وحين يصلون إلى وجهتهم يصبح همهم الإسراع لكي يصلوا الجزيرة في الوقت المناسب. والظاهر أنهم كانوا يعرفون تحديداً الوقت اللازم للوصول، وكمية الطعام والشراب المطلوبة للرحلة. وعلى طول الطريق كانوا يجرون تعديلات مثالية تحسباً لأيّ تغييرات في المناخ أو التيارات. وبدافع الفضول لمعرفة كيفية عمل ذلك، طلب بعض الغربيين إلى سكان الجزيرة أن يطلعوهم على أسرار البحرية خاصتهم؛ إذ أمضى المستكشفون الغربيون عقوداً عدّة لتجميع النظام الذي استخدمه سكان هذه الجزر. وطبقاً لما وجدوه، فقد كان من بين وسائلهم الرئيسية في الملاحة تتبع مسارات النجوم في السماء ليلاً؛ إذ وضع سكان هذه الجزر - على مدار قرون عدّة - مخططاً يضم مسار (14) برجاً مختلفاً في السماء، وكانت هذه الأبراج - جنباً إلى جنب مع الشمس والقمر - تُمثل أقواساً في السماء تشير إلى (32) اتجاهًا مختلفاً حول دائرة الأفق، وتظل هذه الأقواس على حالها بغض النظر عن الموسم. ومن جزيرتهم التي يقطنونها كانوا قادرين على تحديد موقع الجزر الأخرى في المنطقة عن طريق تحديد مواقع النجم الذي ينبغي أن تكون تحته في لحظات معينة ليلاً، وكانوا يعرفون أن هذا الموقع سيتغيّر إلى نجم آخر في أثناء رحلتهم صوب وجهتهم المقصودة. لم يكن لدى سكان هذه الجزر أيّ نظام للكتابة، وكان على الملاحين المُتدريين أن يحفظوا غيباً هذه الخريطة المفصّلة التي كانت في حركة مستمرة.

أمّا في أثناء النهار فكانوا يرسمون مسار الرحلة بوساطة الشمس؛ فعند انتصاف النهار كانوا يستطيعون قراءة الاتجاه الصحيح لوجهتهم بدلالة الظلال التي تنعكس على الصاري، وعند الفجر أو غروب الشمس كانوا يستعينون بالقمر أو النجوم الغاطسة تحت الأفق أو تلك الآخذة بالارتفاع. ولمساعدتهم على قياس المسافة التي قطعوها كانوا يختارون جزيرة بعيدة إلى الجانب بوصفها نقطة مرجعية. وبتابعهم النجوم في السماء كانوا يستطيعون حساب متى يتجاوزون الجزيرة المرجعية، وكم من الوقت بقي للوصول إلى وجهتهم. ومن عناصر هذا النظام كانوا يعتقدون أن الزورق ثابت تماماً في مكانه، وأن النجوم تنتقل من فوقهم،

والجزر في المحيط تتحرك نحوهم ثم بعيداً عنهم بعد أن يتجاوزوها. إن التصرف بناءً على افتراض أن الزورق ثابت سَهَّلَ عملية حساب موقعهم في هذا النظام المرجعي المعتمد لديهم. وبالرغم من أنهم يدركون أن الجزر لا تتحرك فإنهم أصبحوا - بعد سنوات عدّة من السفر بهذه الطريقة- يشعرون حقاً أنهم لا يبرحون مكانهم، وهذا هو سبب تشبيههم بالركاب الجالسين في قطار يستعرضون المشاهد العابرة.

استكمل سكان هذه الجزر الرسم البياني للسماء بعشرات من العلامات الأخرى التي تعلّموا قراءتها. وفيما يخص نظام تلمذتهم الملاحية، فقد كان الشاب الملاح يؤخذ إلى البحر، ثم يُطلب إليه العوم في ماء المحيط ساعات عدّة. وبهذه الطريقة أمكنهم تعلّم التمييز بين التيارات المختلفة عن طريق ملامسة الماء لأجسادهم. وبعد الكثير من الممارسة أصبحوا قادرين على قراءة هذه التيارات بالاستلقاء على أرضية الزورق. وقد تمكّنوا أيضاً من تطوير حساسية مماثلة للرياح، فكانوا يُحدّدون التيارات الهوائية كلها من الطريقة التي يُحرّك بها الهواء شعور رؤوسهم، أو الشراع على المداد.

وفي اللحظة التي يقتربون فيها من إحدى الجزر كانوا يعرفون كيفية تفسير مسارات الطيور البرية التي انطلقت صباحاً لصيد السمك، أو قفلت عائداً عند الغسق إلى وكناتها، وكانوا يستطيعون قراءة التغييرات في الوميض الفسفوري للمياه التي تشير إلى الاقتراب من اليابسة، وتحديد إذا كانت الغيوم البعيدة تعكس الأرض تحتها أو مياه المحيط، وكانوا يستطيعون أيضاً استشعار أيّ تغييرات في درجة الحرارة عن طريق لمس شفاههم مياه البحر، ما يشير إلى اقترابهم من الجزيرة، وقد تعلّموا أن كل ما في هذه البيئة يمكن النظر إليه بوصفه علامة محتملة. إذن، كان لديهم الكثير من المؤشرات التي أحسنوا استخدامها، والتي كيّفوها لتتواءم مع أحوالهم وطرائق معيشتهم.

يُذكر أن الربّان (الملاح الرئيس) لم يكن معنياً بهذه الشبكة المعقّدة من العلامات، وكان يكتفي بنظرة عابرة من حين إلى آخر؛ صعوداً أو هبوطاً لمعرفة ما يجري، ولعله كان يعرف جيداً الرسم البياني للسماء بحيث تكفيه رؤية نجم واحد في السماء ليعرف فوراً أين تقع بقية النجوم الأخرى. لقد تعلّمت هذه الجماعة كيف تقرأ العلامات الملاحية الأخرى

حتى أصبحت سجية في نفوسها. كان لديها إحساس كامل بهذه البيئة، بما في ذلك جميع المتغيرات التي قد تجلب معها الفوضى والخطر. وبحسب وصف أحد الرحّالة الغربيين، فإن ملاحاً رئيساً من هؤلاء استطاع أن يُبحر مئات الأميال من جزيرة إلى أخرى بسهولة مثلما يشق سائق سيارة أجرة خبير طريقه وسط الشوارع المعقّدة والمتشابكة في لندن.

في مرحلة ما من التاريخ، لا بد أن ملاحٍ هذه الجزر قد شعروا بخوف كبير من البحر حينما فكّروا في البحث عن مصادر غذائية أُخرى بعيداً عن الجزر التي يقطنونها، مدرّكين عظم المخاطر المترتبة على ذلك، ولا سيما أن المحيط بدا لهم أكثر اضطراباً من رقعة جزرهم الصغيرة التي يقطنونها، لكنهم تغلبوا ببطء على هذا الخوف، وطوّروا نظاماً كان مناسباً للبيئة التي يعيشون فيها. ففي هذا الجزء من العالم تكون السماء ليلاً صافية معظم أوقات السنة، وقد منحهم ذلك القدرة على الاستفادة جيداً من المواقع المتغيرة للنجوم، وكان استخدامهم الزوارق الصغيرة يسمح لهم بالمحافظة على الاتصال الوثيق بالماء، الذي أتقنوا قراءته بقدر معرفتهم لأرض الجزر التي يسكنون عليها. أمّا تخيّل أنهم ثابتون وأن الجزر تتحرك فقد ساعدهم على تتبع النقاط المرجعية، فضلاً عن تأثيره المُهدئ. إنهم لم يعتمدوا على أداة واحدة أو آلة، بل إن هذا النظام المُتطوّر كلياً كان موجوداً في عقولهم. وعن طريق بناء علاقة وثيقة بالبيئة، وقراءة جميع العلامات المتوافرة، استطاع سكان الجزيرة أن يستفيدوا من القوى الحدسية أقصى ما يمكن مثلما هي حال الحيوانات والطيور المختلفة التي يمكنها أن تجوب أنحاء العالم عن طريق الحساسية المفرطة لحقل الأرض المغناطيسي.

تذكّر: إن القدرة على الاتصال العميق ببيئتك هي أهم الطرائق البدائية التي توصلك إلى أهم صورة من صور الإتقان التي يمكن للدماغ أن يجلبها لك، وهذه البيئة تنطبق على جزيرة ميكرونيزيا مثلما تنطبق على أيّ حقل مهني معاصر أو عمل مكّتي. إننا نكتسب هذه القدرة عن طريق تحويل أنفسنا أولاً إلى مراقبين بارعين، والنظر إلى كل شيء في محيطنا بوصفه علامة محتملة يجب تفسيرها، وعدم الحكم على الشيء من مظهره الخارجي. ومثلما هي حال سكان الجزر، يمكننا أن نُحلّل هذه الملاحظات إلى نظم مختلفة بالتعاون مع الأشخاص الذين نعمل معهم، ونفاعل مع كل شيء يصدر عنهم من قول أو فعل يكشف

عن شيء مخفي تحت السطح، ويمكننا أيضاً أن ننظر إلى تفاعلنا مع الجمهور، ونرقب كيفية استجابته لأعمالنا، وملاحظة كيف أن أذواق الآخرين هي في حالة تغيّر مستمر. يمكننا أن نغمّر أنفسنا في كل جانب من جوانب الحقل الذي نعمل فيه، مع إيلاء العوامل الاقتصادية المؤثرة - مثلاً - الاهتمام اللازم، ونصبح مثل العنكبوت البروستي [نسبة إلى بروس] نستشعر أدنى اهتزاز في شبكتنا. وعلى مرّ السنين، ومع تقدّمنا على هذا الطريق، سنبدأ دمج معرفتنا بهذه المكونات المختلفة في الشعور العام للبيئة نفسها. وبدلاً من تبديد طاقتنا وإرهاق أنفسنا في مواكبة هذه البيئة المعقّدة المتغيّرة، علينا تعرّف هذه البيئة من الداخل، والشعور بالتغيّرات قبل حدوثها.

بالنسبة إلى سكان جزيرة كارولين، لا يوجد شيء غير تقليدي في نظرهم إلى الإتقان، وقد كان منهجهم مناسباً تماماً لظروفهم. ولكن بالنسبة إلينا، في عصر التكنولوجيا المتقدّمة الذي نعيش، فإن الإتقان يُحتمّ علينا تبني خيارات غير تقليدية. ولكي نصبح مراقبين دقيقين جداً؛ يجب علينا ألا نستسلم لمختلف المهيات المصاحبة للتكنولوجيا، ويجب أن نكون بدائيين بعض الشيء. أمّا الأدوات الأساسية التي يجب أن نعتمد عليها فهي أعيننا للمراقبة، وأدمغتنا للتحليل. علمًا بأن المعلومات المقدّمة لنا من الوسائط المختلفة ليست سوى جزء صغير من المكونات التي تربطنا بالبيئة. ومن السهل أن نُفتنّ بالقدرات التي تُقدّمها التكنولوجيا لنا، وننظر إليها بوصفها الغاية لا الوسيلة. عندما يحدث ذلك فإننا سنرتبط ببيئة افتراضية، وستنحسر قوة عيوننا وأدمغتنا ببطء. ختاماً، عليك أن ترى بيئتك بوصفها كياناً مادياً، وأن يكون اتصالك بها اتصالاً باطنياً. وإذا وُجدت أداة أخرى جديدة بأسرنا فهي الدماغ البشري؛ إنه أكثر الأدوات إعجازاً، وإثارةً للإعجاب، ومعالجةً للمعلومات في الكون المعروف، وهو على درجة من التعقيد لا يمكننا أن نبدأ بتصوُّرها، ويتميّز بقوة تفوق أبعادها أيّ جانب من التكنولوجيا في تطوُّرها ونفعها.

2. تصرف بما يناسب قوتك (التركيز الأعلى)

أ. في السنوات الأولى من حياة طفلها كان لوالدي ألبرت أينشتاين (1879م-1955م) سبب وجيه للقلق؛ فقد مضى وقت أطول من المعتاد قبل أن يتمكن ألبرت الصغير من النطق

والتحدُّث، وكانت أولى محاولاته في اللغة دائماً متلكئة. (لمعرفة المزيد عن أينشتاين، 42 و 92). كان لديه عادة غريبة في أن يهمس في نفسه أولاً الجملة قبل أن يتحدث بها بصوت عالٍ، وكان والده قلقين من أن ابنيهما قد يكون مصاباً بقصور عقلي، فاستشارا في ذلك طبيباً للوقوف على حالته. ولكن سرعان ما تلاشى تلكؤه في الكلمات، وتكشفت لديه بوادر قوة عقلية؛ فقد كان جيداً في حلّ الألغاز، وأظهر موهبة في بعض العلوم، وكان يحب العزف على الكمان، ولا سيما أيّ من معزوفات موزارت الذي كان لا يمل من عزف مقطوعاته الموسيقية.

بيد أن المشكلات عادت إلى الظهور مرة أخرى مع انتظامه في الصفوف الدراسية؛ إذ إنه لم يكن طالباً نجيباً في المدرسة، وكان يكره الواجبات التي فيها حفظ الكثير من الحقائق والأرقام، وكان يكره أيضاً السلطة الصارمة التي يمارسها المعلمون. كانت علاماته دون الجيد، فقرّر الوالدان إرسال ابنيهما البالغ من العمر ستة عشر عاماً إلى مدرسة أكثر تحرراً في التفكير ببلدة أرو قرب منزلهما في زيوريخ، وذلك حرصاً على مستقبله. كانت المدرسة تستخدم طريقة طوّرها مصلح التعليم السويسري يوهان بستالوتزي، وهي تُشدد على أهمية التعلّم عن طريق ما يلاحظه المرء بنفسه، وهو أسلوب يؤدي إلى تطوير الأفكار والحدس. وحتى موضوعات الرياضيات والفيزياء كانت تُدرّس بهذه الطريقة. لم يكن يوجد أيّ تدريبات أو حقائق للحفظ عن ظهر غيب، وكان المنهاج يُركّز كثيراً على أشكال الذكاء البصرية التي كان بستالوتزي يرى أنها هي مفتاح التفكير الإبداعي.

في هذه البيئة، نبغ الشاب أينشتاين فجأة؛ فقد وجد المكان مُحفّزاً له كثيراً، وكان نظام المدرسة يشجّع الطلاب على التعلّم من تلقاء أنفسهم، والذهاب إلى حيث تقودهم ميولهم، وكان هذا يعني لأينشتاين الخوض بعمق في الفيزياء النيوتنية (كان شغوفاً بها). وفي آخر المستجدات في حقل الكهرومغناطيسية. ودراسته لنيوتن وهو في أرو، عرضت له مشكلات في مفهوم نيوتن للكون أقلقته كثيراً وجعلته مستيقظاً ليالي عدّة لا يعرف طعم النوم.

بحسب نيوتن، يمكن تفسير ظواهر الطبيعة جميعها باستخدام القوانين الميكانيكية البسيطة، وإن العلم بهذه القوانين يُفضي إلى استنتاج سبب حدوث كل شيء في الكون.

فالأجسام تتحرك خلال الفضاء وفقاً لهذه القوانين الميكانيكية، مثل قوانين الجاذبية، ويمكن قياس حركات الأجسام جميعها باستخدام المعادلات الرياضية؛ إنه كون محكم في تنظيمه وانضباطه، ولكن مفهوم نيوتن اعتمد على افتراضين لا يمكن أبداً التثبُّت أو التحقُّق منهما بالتجربة: الوجود المطلق للزمان، والوجود المطلق للمكان، وكلاهما - وفقاً للاعتقاد السائد- له وجود مستقل عن الكائنات الحية والجمادات. ومن دون هذه الافتراضات لا يوجد أيُّ معيار نهائي للقياس، بيد أنه كان صعباً التشكيك في نظام نيوتن المتألق؛ نظراً إلى أن العلماء، وتأسيساً على قوانينه، يمكنهم أن يقيسوا بدقة تحركات الموجات الصوتية، وانتشار الغازات، وحركات النجوم.

بالرغم من ذلك، ففي أواخر القرن التاسع عشر بدأت تظهر بعض الصدوع في مفهوم نيوتن للكون الميكانيكي. واستناداً إلى أعمال مايكل فارداي، فقد أحرز عالم الرياضيات الإسكتلندي الكبير جيمس ماكسويل بعض الاكتشافات المثيرة للاهتمام التي تتعلق بالخصائص الكهرومغناطيسية. وبتطويره ما أصبح يُعرف باسم نظريات الحقل أكد ماكسويل أن الكهرومغناطيسية يجب ألا توصف من حيث إنها جسيمات مشحونة، بل من حيث إنها حقول في الفضاء لديها قدرة كامنة مستمرة على التحوُّل إلى الكهرومغناطيسية، وإن كل حقل يتكوَّن من ناقلات الجهد التي قد تُفرض على أيِّ نقطة. وطبقاً لحساباته فإن الموجات الكهرومغناطيسية تتحرك بسرعة (186000) ميل في الثانية، وهي سرعة تساوي سرعة الضوء، وهذا لا يمكن أن يكون مجرد مصادفة. ولذلك فإن الضوء حتماً ما هو إلا مظهر مرئي لطيفٍ كاملٍ من الموجات الكهرومغناطيسية.

كان هذا المفهوم الجديد حدثاً رائداً ومبتكراً في عالم الفيزياء. ولكن لجعله متسقاً مع نيوتن، افترض ماكسويل وآخرون وجود أثير حامل للضوء، وهو مادة يمكنها أن تتأرجح وتنتج هذه الموجات الكهرومغناطيسية، وهذه المادة تشابه مياه الأمواج في المحيطات، أو الهواء في الجو الذي يحمل موجات الصوت. وقد أضاف هذا المفهوم مطلقاً آخر إلى معادلة نيوتن، هو السكون المطلق؛ إذ إن سرعة حركة هذه الموجات لا يمكن قياسها إلا على ظهر شيء ساكن، وهذا الشيء هو الأثير نفسه، وهذا الأثير لا بد أن يكون شيئاً غريباً يغطي الكون كله، ولكن ليس له ألبته التدخل في حركة الكواكب أو الأجسام.

لقد سعى العلماء في مختلف أنحاء العالم - على مدار عقود عدّة- لإثبات وجود هذا الأثير، ونفّذوا لأجل ذلك مختلف أنواع التجارب الدقيقة، ولكن يبدو أنه كان مسعى مستحيلًا، وقد أثار هذا الكثير من الأسئلة عن نموذج الكون النيوتني والمطلقات التي يعتمد عليها. استوعب ألبرت آينشتاين ما استطاع من أعمال ماكسويل والأسئلة التي تثيرها، ولكن آينشتاين نفسه كان بحاجة عارمة إلى الإيمان بالقوانين، وبوجود الكون المنتظم، فالشعور بالشك في هذه القوانين كانت مصدر قلق كبير له.

في أحد الأيام، وفي خضم هذه الأفكار كلها حينما كان طالبًا في المدرسة بأرو، عنّت له صورة في ذهنه، هي صورة رجل يتحرك بسرعة الضوء نفسه. وبينما كان يتأمل هذه الصورة تحوّلت في ذهنه إلى شيء مثل اللغز، أو ما سمّاه فيما بعد تجربة فكرية: إذا كان الرجل ينطلق بسرعة الضوء جنبًا إلى جنب مع شعاع ضوء، فإنه لا بد أن يكون قادرًا على «مشاهدة ذلك الشعاع من الضوء بوصفه حقلًا كهرومغناطيسيًا ساكنًا بالرغم من أنه يتأرجح مكانيًا».

حدسيًا، رأى آينشتاين أن هذه الصورة لا معنى لها لسببين:

أ. في اللحظة التي سينظر فيها الرجل إلى مصدر الضوء لرؤية الشعاع يكون نبض الضوء قد تجاوزه بسرعة الضوء، ولا يمكن تصوّر خلاف ذلك؛ لأن الضوء المرئي يسير بتلك السرعة الثابتة.

ب. إن سرعة نبض الضوء بالنسبة إلى المراقب ستظل (186000) ميل في الثانية، وإن القانون الذي يحكم سرعة الضوء أو أيّ موجة كهرومغناطيسية لا بد أن يكون هو نفسه بالنسبة إلى شخص جالس في مكانه على الأرض، أو أي شخص يتحرك -فرضيًا- بسرعة الضوء. إذن، لا يمكن أن يوجد قانونان منفصلان، ومع ذلك لا يزال من الممكن نظريًا افتراض إمكانية اللحاق بالموجة نفسها ورؤيتها قبل أن تظهر بصورة ضوء. لقد كانت تلك مفارقة تُسبّب له القلق كلما فكّر فيها.

في العام التالي دخل آينشتاين معهد زيوريخ للبوليتكنيك، وعاد إليه مرة أخرى كرهه للتعليم التقليدي. لم يفلح جيدًا في الرياضيات، وكان يكره الطريقة التي كانت تُدرّس فيها

مادة الفيزياء، وراح يدرس مواد في مجالات لا ارتباط فيما بينها. لم يكن طالباً واعدًا، ولم يجذب انتباه أيِّ أستاذ مهم أو مرشد، فنشأ عنده سريعاً ازدياء للأوساط الأكاديمية والقيود التي وضعتها على تفكيره، ولكنه بقي يعاني كثيراً بسبب تجربته الفكرية، واستمر في مواجهتها بنفسه، وأمضى شهوراً في وضع تجربة يمكنها أن تسمح له بالكشف عن الأثير وعن آثاره في الضوء، بيد أن أستاذاً في كلية الفنون التطبيقية كشف له أن تجربته غير قابلة للتطبيق، وقدّم لآينشتاين ورقة تصف كل المحاولات الفاشلة للكشف عن الأثير التي أجراها علماء بارزون، وربما كانت تلك محاولة من الأستاذ لتفيس غرور هذا الطالب ذي العشرين ربيعاً الذي يعتقد أنه يستطيع إحراز النجاح في شيء فشل في تحقيقه أعظم علماء العالم.

بعد ذلك بعام، في عام 1900م، اتخذ آينشتاين قراراً مصيرياً حيال نفسه أثر في مجرى حياته، مفاده أنه لم يكن عالماً تجريبياً، ولم يكن يُحسِّن إجراء التجارب، ولم يكن يجد متعة في العملية كلها. ولكن كان لديه العديد من نقاط القوة؛ إذ كان أعجوبة في حلِّ الألغاز المجردة من أي نوع، وكان يستطيع قلبها في عقله، وتحويلها إلى صور يمكن التلاعب بها وإعادة تشكيلها كيفما شاء. وبسبب ازديائه الطبيعي للسلطة والتقاليد؛ فقد كان قادراً على أن يفكر بطرائق مبتكرة ومرنة، وهذا يعني حتماً أنه لن يُحرز النجاح في العالم الأكاديمي المليء بالمزلق، وأن عليه رسم طريقه الخاص، ولكن هذا قد يكون ميزة له؛ لأنه سيُحرره من الحاجة إلى التكيّف مع تلك البيئة، أو الالتزام بالنموذج القياسي السائد.

استمر آينشتاين في العمل على تجربته الفكرية ليلاً ونهاراً حتى توصل في نهاية المطاف إلى استنتاج مفاده أنه لا بد من وجود خطأ في المفهوم الكامل عن الكون المادي مثلما وصفه نيوتن. وكان العلماء يسلكون مدخلاً خطأً في التعامل مع المشكلة؛ إذ كانوا يجهدون أنفسهم في سبيل إثبات وجود الأثير من أجل الحفاظ على صرح نيوتن. وبالرغم من أن آينشتاين كان من المعجبين بنيوتن فإنه لم يكن مرتبطاً بأيِّ مدرسة فكرية.

إن قراره العمل وحده منحه الحرية في أن يكون جريئاً مثلما يجب، وقد استطاع أن يضرب فكرة الأثير نفسها بعرض الحائط ومعها جميع المطلقات التي لا يمكن التحقق منها من دون أن يخشى لائمة، كانت طريقه إلى الأمام تعتمد على استنتاج القوانين والمبادئ

التي تحكم الحركة عن طريق قواه العقلية، وطريق الرياضيات، لم يكن بحاجة إلى منصب جامعي أو مختبر للقيام بذلك، وقد أمكنه العمل على حل هذه المشكلة أينما وجد نفسه.

ومع مرور السنين، بدأ أينشتاين في نظر الآخرين مثلاً على الفشل؛ إذ إنه تخرج في معهد البوليتكنيك قريباً من المرتبة الأخيرة في صفه، ولم يتمكن من العثور على أي نوع من الوظائف في حقل التدريس، واستقر أخيراً على القبول بوظيفة متوسطة منخفضة الأجر، مُقيماً طلبات الحصول على براءات الاختراع في مكتب تسجيل براءات الاختراع السويسري في برن، ولكنه كان حراً للاستمرار في مساعاه وحده، وكان يعمل بمثابة لا تُصدّق في حل هذه المشكلة الوحيدة. حتى في الوقت الذي بدا فيه أنه يعمل في وظيفته في مكتب تسجيل براءات الاختراع كان يُرَكِّز ساعات عدّة على نظرية تتخمّر في ذهنه، وحتى عندما كان يخرج للنزهة مع الأصدقاء كان يواصل تأمل أفكاره؛ إذ كانت لديه قدرة غير عادية على الاستماع لمسار واحد والتفكير في مسار آخر. كان يحمل معه دفترًا صغيرًا يملأه بمختلف أنواع الأفكار، وقد فكّر ملياً في المفارقة الأصلية، وفي جميع التحسينات التي خضعت لها، وراح يُقلِّبها في ذهنه إلى ما لا نهاية، مُتخيلاً آلاف الاحتمالات المتعددة، وكان في كل ساعة من يقظته تقريباً يفكّر في المشكلة من زاوية أو أخرى.

في سياق تفكيره العميق توصل أينشتاين إلى مبدئين اثنين مهمين من شأنهما أن يقوداه إلى الأمام: أولهما تقرير أن حدسه الأصلي لا بد أن يكون صحيحاً، وأن قوانين الفيزياء يجب أن تنطبق بالتساوي على شخص جالس مثلما تنطبق على شخص منطلق بسرعة مُوحّدة في مركبة فضائية. وأي شيء غير ذلك سيكون مخالفاً للعقل، وبلا معنى. وثانيهما أن سرعة الضوء تكون ثابتة. حتى لو كان نجماً يتحرك بسرعة عدة آلاف ميل في الساعة فإن الضوء المنبعث منه ستبقى سرعته (186000) ميل في الثانية، ولن تكون أسرع من ذلك. وبهذه الطريقة سيلتزم بقانون ماكسويل الخاص بالسرعة الثابتة للموجات الكهرومغناطيسية.

بيد أنه في معرض تفكيره في هذه المبادئ، ظهرت له مفارقة أخرى في ذهنه بصورة أخرى؛ فقد تخيّل قطاراً مسرعاً على سكة وأنواره مضيئة، ورجلاً يقف على رصيف سكة الحديد، ويشاهد شعاع الضوء الذي يسير بالسرعة المُتوقّعة. ولكن، ماذا لو أن امرأة كانت

تركض باتجاه القطار أو بعيداً عنه على سكة الحديد؟ إن سرعة المرأة بالنسبة إلى القطار تعتمد على السرعة التي كانت تنطلق بها، وفي أيّ اتجاه، ولكن، ألن تكون واحدة مع شعاع الضوء؟ لا شك أن شعاع الضوء المنبعث من القطار بالنسبة إلى المرأة سيتحرك بسرعة مختلفة إذا كانت المرأة تركض بعيداً عن القطار أو باتجاهه، وأن سرعة هذا الشعاع ستختلف عن السرعة بالنسبة إلى الرجل على رصيف السكة. إن هذه الصورة - حقيقةً - أثارت الشكوك في كل مبادئه التوجيهية القائمة حتى ذلك الحين.

بقي آينشتاين يتأمل هذه المفارقة أشهراً عدّة، وفي شهر أيار (مايو) من عام 1905م قرّر التخلي عن هذه المسألة كلها؛ فعلى ما يبدو أنها كانت عصيّة على الحل. في يوم مشمس جميل في مدينة برن، وبينما كان يسير مع صديق وزميل له من مكتب تسجيل براءات الاختراع أخذ يخبره عن الطريق المسدود الذي وصل إليه، وعن خيبة أمله، وقراره التخلي عن متابعة حلّ هذا اللغز. وما إن فرغ من حديثه - مثلما تذكّر في وقت لاحق - حتى فهم فجأة مفتاح هذه المشكلة. لقد جاء إليه في ومضة بدهية كبيرة، بصورة أولاً ثم بالكلمات؛ إنها بصيرة جزء من الثانية غيرت إلى الأبد مفهومنا للكون.

أوضح آينشتاين في وقت لاحق هذه البصيرة (الرؤية) على النحو الآتي: لنفترض أن قطاراً يتحرك متجاوزاً الرصيف بسرعة ثابتة، وأن رجلاً يقف وسط الرصيف. وفي الوقت الذي تجاوزه فيه القطار ضربت ساعة من البرق - في آنٍ معاً - النقطتين (أ) و (ب) اللتين تبعدان عن الرجل مسافة متساوية من يمينه ويساره. ولنفترض أنه توجد امرأة تجلس في منتصف القطار الذي مرّتواً من أمام الرجل الواقف على الرصيف لحظة صعق البرق للنقطتين. ستقترب المرأة من النقطة (ب) مع انتقال الإشارة الضوئية، وستراها قبل صعقة البرق بقليل عند النقطة (أ). إن ما يبدو متزامناً بالنسبة إلى الرجل على الرصيف ليست كذلك بالنسبة إلى المرأة التي في القطار، ولا يمكن القول عن حدثين إنهما وقعا في وقت واحد؛ لأن كل إشارة إلى الحركة لديها وقتها النسبي الخاص بها، وكل شيء في الكون يتحرك بالنسبة إلى شيء آخر. وقد عبّر آينشتاين عن ذلك قائلاً: «لا توجد تك تاركنا» [كناية عن لحظة من الزمن] مسموعة في كل مكان في العالم يمكن عدّها زمنًا». وإذا كان الوقت

ليس مطلقاً فهذا يعني أنه لا الفضاء مطلق ولا المسافة مطلقة، كل شيء نسبي إلى كل شيء آخر: السرعة، والوقت، والمسافة... باستثناء سرعة الضوء التي لا تتغير أبداً.

عُرِفَت هذه النظرية باسم النظرية النسبية البسيطة (أو الخاصة)، وفي السنوات التي تلتها عملت على زعزعة الأسس التي تقوم عليها الفيزياء والعلوم التطبيقية. وبعد سنوات عدّة، كرّر أينشتاين العملية نفسها تحديداً لاكتشاف النسبية العامة وما أسماه انحناء الزمكان*، وذلك بتطبيق النسبية على قوة الجاذبية، وابتداءً - مرة أخرى - بصورة؛ تجربة فكرية ظل يتأملها نحو عشر سنوات حتى أفضت في النهاية إلى اكتشاف جديد تمثّل في نظرية جديدة عام 1915م. ومن هذه النظرية وحدها استخلص أن مسار أشعة الضوء انعطفت بفعل انحناء الزمكان، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، فتكهّن بدقة مقدار الانحناء في أشعة النجوم تجاه الشمس. ومما أثار دهشة العلماء والجمهور أنه في أثناء كسوفٍ للشمس عام 1919م استطاع علماء الفلك أن يتحقّقوا بدقة من صحة تكهّنات أينشتاين. ويبدو أنه لا يمكن إلاّ لشخص يتمتع بقدرات خارقة أن يستنتج قياساً من هذا القبيل عن طريق التفكير المجرد. وفي تلك اللحظة تولّدت شهرة ألبرت أينشتاين وسمعته بوصفه عبقريةً عجيبةً، وهي لا تزال على هذا النحو منذ ذلك الحين.

بالرغم من رغبتنا في افتراض أن عبقريةً مثل ألبرت أينشتاين كان يملك قدرات أعظم من قدراتنا فإن اكتشافاته العظيمة اعتمدت على قراراتين بسيطتين جداً اتخذهما عندما كان شاباً: الأول في سنّ العشرين حين قرّر أنه سيكون عالماً تجريبياً متوسط المستوى. وبالرغم من أن الطريق التقليدي في الفيزياء كان يتطلّب الانغماس العميق في الرياضيات والتجريب فإنه سلك طريقه الخاص، وهو قرار جريء. أمّا القرار الثاني فهو أنه كان يعدّ نفوره الأساسي من السلطة والأعراف السائدة قوة كبيرة له، فكان يهاجم من الخارج وهو مُحَرَّر من عبء كل الافتراضات التي كانت تقض مضاجع العلماء فيما يتعلق بنيوتن. لقد سمح له هذان القراران باستغلال قوته، ويمكن تحديد عامل ثالث أيضاً، هو حُبّه للكمان

* الزمكان: مصطلح فيزيائي منحوت من كلمتي الزمان والمكان للتعبير عن الفضاء رباعي الأبعاد الذي أدخلته النظرية النسبية ليكون فضاء الحدث بدلاً من المكان المطلق الفارغ في الميكانيكا الكلاسيكية ونظرية الكم. (ويكيبيديا) [المترجم]

وموسيقى موزارت، وكان يردُّ على الذين يستغربون من إعجابه بموزارت، بقوله: «إنها في دمي». وما يعنيه هو أنه قد عزف هذه الموسيقى كثيرًا حتى أصبحت جزءًا منه؛ إنها جوهره. لقد كان لديه فهم داخلي (باطني) للموسيقى، وقد أصبح ذلك هو النموذج اللاشعوري لنهجه في العلم؛ إذ كان يأخذ نفسه في التفكير إلى داخل الظواهر المعقّدة.

صحيح أننا نميل إلى تخيّل آينشتاين بأنه ذروة المفكّر التجريدي النظري، بيد أن طريقته في التفكير كانت -على نحوٍ لافت- مادية؛ إذ كانت دائمًا تقوم على صور مرتبطة بأشياء من الحياة اليومية من حوله، مثل: القطارات، والساعات، والمصاعد. إن التفكير في هذه الطريقة المادية الملموسة مكّنه من تقليب المشكلة في ذهنه مرارًا وتكرارًا، وجعله ينظر إليها من مختلف الزوايا في أثناء مشيه، أو حديثه مع الآخرين، أو جلوسه في مكتبه في مصلحة تسجيل براءات الاختراع. كان يبيّن لاحقًا أن الخيال والحدس أسهما في اكتشافاته على نحوٍ أكثر من معرفته بالعلوم والرياضيات، وأنه إذا كان لديه أيُّ من الصفات غير العادية فهي صبره الممزوج بمثابرتة المتشدّدة. بعد أن أمضى ما يربو على (10000) ساعة من التأمّل في مشكلة واحدة استطاع أن يصل إلى نقطة التحوّل، وهي النقطة التي يمكن عندها استيعاب الجوانب المختلفة لظاهرة جد معقّدة واستبطانها، ما يؤدي إلى إدراك حدسي للكل (في حالتنا هذه تمثّلت في الصورة المفاجئة التي عثّت له لتكشفت عن نسبية الزمن). أمّا نظريته النسبيتان (الخاصة والعامة) فربما يجب أن تُعدّ أعظم إنجاز فكري في التاريخ، فقد كانتا ثمار جهد مكثّف، لا نتيجة لعبقريّة استثنائية لا يمكن تفسيرها.

يوجد الكثير من الطرائق المؤدية إلى الإتقان، وإذا كنت ذا عزيمة وإصرار ستجد حتمًا واحدة تناسبك، بيد أن عنصرًا أساسيًا في العملية هو الذي يُحدّد نقاط قوتك العقلية والنفسية ويتعامل معها. فأن ترتفع إلى مستوى الإتقان يعني قضاء ساعات طويلة من التركيز المُكثّف والممارسة، ولا يمكنك الوصول إلى هذا المستوى إذا كان عملك لا يجلب لك الفرح، وكنت تناضل باستمرار للتغلب على نقاط ضعفك. يجب أن تنظر عميقًا إلى داخلك، وتتوصّل إلى فهم جوانب القوة والضعف لديك، وتكون واقعيًا قدر الإمكان؛ إذ إن معرفتك نقاط القوة تساعدك على الاتكاء عليها بصورة كبيرة. وما إن تبدأ العمل في هذا الاتجاه حتى

تكتسب زخمًا، فلن تكون مثقلًا بالتقاليد المتبعة، ولن تتباطأ بسبب الاضطرار إلى التعامل مع مهارات تتعارض مع ميولك ونقاط قوتك. وبهذه الطريقة سوف توظف قدراتك الإبداعية والحدسية بصورة طبيعية.

ب. حين تعود في تفكيرها إلى سنواتها الأولى في خمسينيات القرن العشرين، لا تستطيع تمبل غراندن أن تتذكر سوى عالم مظلم تسوده الفوضى؛ فقد وُلدت مصابة بمرض التوحد، ويمكنها أن تتذكر أنها كانت تقضي ساعات على الشاطئ وحيدة تراقب حبات الرمل وهي تتساقط من يديها (لمعرفة المزيد عن غراندن، 61-64 و 215-218). لقد كانت تعيش في عالم من الرعب المتواصل؛ فأبى ضجيج مفاجئ كان يُسبب لها الإرباك والهلع. وقد استغرقت في تعلم اللغة وقتًا أطول مقارنةً بالأطفال الآخرين، وبعد أن تعلّمت اللغة ببطء أدركت بألم مدى اختلافها عن الأطفال الآخرين. كانت تقضي معظم أوقاتها وحيدة، فانجذبت بصورة طبيعية إلى الحيوانات، ولا سيما الخيول، وكان ذلك أكثر من مجرد الحاجة إلى الرفقة؛ فقد كانت تشعر -بصورة ما- بوحدة الحال، وبتعاطف غير عادي مع عالم الحيوان، وكان لها شغف كبير بركوب الخيل في الأرياف القريبة من مدينة بوسطن حيث نشأت، وتكوّنت لديها صلة عميقة بالخيول من هذه الهواية.

في إحدى العطلات الصيفية أرسلت تمبل، وهي فتاة صغيرة، لزيارة خالتها أن التي كانت تملك مزرعة في ولاية أريزونا. شعرت تمبل بوجود اتصال فوري بالماشية في المزرعة، وكانت تحب مراقبة هذه الحيوانات ساعات طويلة، وكانت مفتونة على وجه الخصوص بألة ذات ألواح تُستخدم في ضغط الحيوانات عند تطعيمها. كان الضغط الناتج من هذه الألواح حين توضع الحيوانات بينها قد صُمم لمساعدتها على الاسترخاء حين كانت تُحقن بإبر التطعيم المؤلمة.

وبقدر ما تسعفها ذاكرتها فإنها حاولت دائمًا لف نفسها ببطانية أو دفن نفسها تحت الفراش والوسائد لكي تشعر بشيء من الضغط؛ فأبى نوع من الضغط المُتدرج كان يجعلها تشعر بالاسترخاء والراحة مثلما كان يحدث للأبقار (مثلما هو شائع لدى الأطفال المصابين بالتوحد، فقد كان احتضانها من البشر يجعلها تشعر بتهدئة مفرطة، ويصيبها بالقلق؛ لأنها

لم تكن تسيطر على التجربة). كانت دائماً تحلم بألة تضغطها، ولمّا رأت الماشية في حجيرة الضغط أدركت الجواب سريعاً؛ ففي أحد الأيام توسّلت إلى خالتها لتسمح لها بالدخول في حجيرة الضغط لكي تتعرّض للضغط مثل البقرة، فوافقت الخالة. ظلت تمبل في الحجيرة مدة ثلاثين دقيقة نالت فيها ما كانت تتوق إليه دائماً، ثم شعرت بسكينة تامة. في تلك اللحظة أدركت أن لديها ارتباطاً غريباً بالمواشي، وأن مصيرها متصل - بصورة ما - بهذه الحيوانات.

وبدافع من الفضول حول هذا الترابط بينها وبين الحيوانات، وبعد سنوات قليلة لاحقة في المدرسة الثانوية، قرّرت تمبل عمل بحث عن المواشي، وكانت تريد أيضاً معرفة إذا كان غيرها من الأطفال والبالغين الذين يعانون التوحد لديهم مشاعر مماثلة، لكنها لم تجد سوى معلومات قليلة جداً عن المواشي ومشاعرها، أو كيف تواجه هذه المواشي العالم، في حين وجدت الكثير من المعلومات عن التوحد، وراحت تقرأ بنهم كل ما وقع تحت يدها عن هذا الموضوع. وبهذه الطريقة اكتشفت أن لديها اهتماماً خاصاً بالعلوم، وقد سمح لها نشاطها في البحث بتصريف طاقتها العصبية، واكتساب المزيد من المعرفة عن العالم، وكانت تتمتع بقدرات هائلة من التركيز التام على موضوع واحد.

وشياً فشيئاً استطاعت أن تُحوّل نفسها إلى طالبة واعدة، وهو ما سمح لها بالالتحاق بكلية الفنون الحرة في مدينة نيوهامبشاير حيث تخصصت في علم النفس. لقد اختارت هذا المجال بسبب اهتمامها بالتوحد؛ إذ كانت لديها معرفة شخصية بهذا الموضوع، وسوف يساعدها هذا التخصص على فهم المزيد من العلم المتعلق بهذه الظاهرة. وبعد تخرجها قرّرت مواصلة الدراسة للحصول على درجة الدكتوراه في علم النفس من جامعة ولاية أريزونا، ولكنها عندما عادت إلى الجنوب الغربي في زيارة لخالتها استعادت الاتصال بافتانها القديم منذ طفولتها بالماشية. ومن دون أن يكون لديها أي فكرة حقيقية عن سبب فعلها ذلك، أو إلى أين سيؤول أمرها، قرّرت أن تُغيّر تخصصها إلى علوم الحيوان، مُركّزة في أطروحتها على موضوع المواشي.

كانت تمبل تعتمد دائماً في تفكيرها على لغة الصور وحاسة البصر، وتلجأ غالباً إلى ترجمة الكلمات إلى صور قبل أن تتمكن من فهمها، وربما كان هذا نتيجة لطبيعة فريدة في عمل دماغها. وعندما زارت عدداً من حظائر الماشية في الأرياف القريبة ضمن متطلبات العمل الميداني في تخصصها الرئيس، شعرت بالصدمة من هول ما شاهدته. وفجأة تبين لها بوضوح أن ميلها إلى التفكير البصري لا يشاركها فيه معظم الناس. والأمر، كيف يمكن تفسير التصميم غير المنطقي لكثير من هذه الحظائر وافتقارها الملحوظ إلى الاهتمام بالتفاصيل التي كانت واضحة جداً في عينيها؟

كانت تشاهد بفرع الحيوانات وهي تساق خلال مزالق الماشية شديدة الانحدار، وكانت تتصور ما يشعر به حيوان يزن (1200) باوند (544 كغم) حين يجد نفسه فجأة وقد فقد السيطرة والتوازن على سطح منحدر أملس زلق. لا شك أن هذه الحيوانات ستجأر، وتعلو أصواتها، وتقف في مسارها، فيتسبب ذلك في اصطدامها المفاجئ بعضها ببعض. في أحد المعالف في إحدى الحظائر كانت الأبقار كلها تقريبا تتوقف عند نقطة واحدة، وكان واضحاً أن شيئاً ما في مجالها البصري يبدو مرعباً لها، فلماذا لم يتوقف أحد لبحث عن السبب؟ وفي حظيرة أخرى شاهدت منظرًا مرعباً لقطيع من الماشية سيق في معبر منحدر يؤدي إلى مغطس التعقيم، وهو بركة ماء تحتوي على أدوية لتخليص الحيوانات من القراد والطفيليات العالقة بها. كان المنحدر شديداً جداً، والسقوط في الماء فظيلاً، وكانت بعض المواشي تتعثر عنده، وتسقط في البركة رأساً على عقب، وتغرق فيها.

وتأسيساً على ما رأته، فقد قررت القيام بتحليل مُفصّل لكفاءة هذه الحظائر، وكيف يمكن تحسينها، وجعلت ذلك موضوع أطروحتها لنيل درجة الماجستير، ثم شرعت في زيارة العشرات من هذه المواقع، وكانت تقف في كل مرة قرب المزالق وحجيرات الضغط، وترصد ردود فعل الماشية وهي تخضع لعملية لتطعيم والترقيم، وكانت تبادر من تلقاء نفسها إلى الاقتراب من تلك المواشي وتمسح أجسامها بيدها؛ فعندما كانت تمارس ركوب الخيل وهي فتاة كانت في كثير من الأحيان تستطيع استشعار مزاج الحصان بلمس رجليه وساقيه فقط. ولهذا بدأت تجربة ذلك مع الماشية، ولاحظت أنه حينما كانت تضغط بيديها على جانبي

الدابة فإنها تُظهر استجابة تتم عن الاسترخاء، ولاحظت أيضاً أنه عندما تكون هي هادئة كانت الماشية تتفاعل معها على نحو أكثر هدوء. ورويداً رويداً بدأت تستشعر طريقة استجابة هذه الحيوانات ونظرتها إلى العالم، وكيف أن معظم سلوكها نابع من تهديدات مُتصوّرة في أذهانها لا نستطيع نحن البشر أن نلاحظها بالضرورة.

وسرعان ما أصبح واضحاً لتمبل أنها كانت هي الوحيدة في قسم علوم الحيوان التي تهتم بمشاعر الحيوانات وتجاربها. وهذا النوع من الاهتمام كان يُعدُّ من الموضوعات عديمة الفائدة ودون الاهتمام العلمي، ولكنها مع ذلك أصرّت على مواصلة بحثها ضمن هذه الخطوط؛ من أجلها هي شخصياً، ولأنها شعرت أن ذلك مرتبط بأطروحتها. بعد ذلك بدأت تمبل تحمل معها آلة تصوير (كاميرا) في جولاتها بين الحظائر. ولعلمها أن الأبقار لديها حساسية قوية تجاه أيّ تباين في مجالها البصري؛ فقد كانت تتبع مسار الحيوانات في مختلف المزالق والممرات، وتجتو على ركبتيها لالتقاط الصور (بالأسود والأبيض) من منظور هذه الحيوانات. كانت كاميرتها تلتقط مختلف أنواع التباينات الحادة التي تقع في مجال الرؤية البصرية للحيوانات: سطوع قوي لضوء الشمس، ثم ظلال مفاجئة، وأشعة مبهرة من النافذة. كان واضحاً لها أن رؤية هذه التباينات الحادة هو سبب تكرار توقفها المفاجئ في مساراتها، وأحياناً كانت رؤية زجاجة بلاستيكية معلقة أو رسن متدلّ يتسبّب في ردّ فعل مشابه؛ فقد كانت هذه الأدوات تبدو للحيوانات أنها تُمثّل خطراً عليها.

من الواضح أن طبيعة هذه الحيوانات لا يناسبها العيش في حقول التسمين الصناعي؛ إذ يُؤلّد ذلك ضغطاً شديداً الوطأة عليها. فكلما شعرت الحيوانات بالخوف من شيء ما بحكم غريزتها كانت حفيظة العاملين في الحظيرة تتور فيبدوون بحفز تلك الحيوانات وانتهارها لاستعجالها مما يزيد خوفها ويفاقم من هلعها. كانت أعداد الإصابات والوفيات مروعة، وكان يُهدّر وقت كثير عندما تتكدّس هذه المواشي بعضها فوق بعض وتسد طريقها. بالرغم من ذلك كله، وبعد أن تبين لها كل شيء الآن، فقد كان علاج هذه المشكلة في منتهى السهولة.

بعد تخرجها حصلت على أول سلسلة من وظائف العمل في تصميم العناصر المختلفة لحظائر المواشي في مختلف أنحاء الجنوب الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية. وفي

مصانع تعليب اللحوم ابتكرت ممرات للمواشي وأنظمة سيطرة وكبح أكثر رفقاً بالحيوان مما كان موجوداً من قبل. لقد تحقّق بعض ذلك عن طريق الاهتمام بالتفاصيل البسيطة، مثل: تعديل درجة انحناء المنحدر بحيث لا تستطيع المواشي رؤية أيّ شيء على الجانبين أو الأشياء البعيدة جداً، وهو ما يحافظ على هدوئها. وفي موقع آخر أعادت تصميم مغطس التعقيم بحيث يكون المنحدر المؤدي إلى البركة أقل انحداراً، وتحديد سطحه الأسمنتي لمنع الانزلاق ومساعدة الحيوانات على النزول بخطى ثابتة، وبذلك أصبح النزول إلى الماء سهلاً ويسيراً. وقد أعادت أيضاً تصميم المنطقة التي تُجفّف فيها المواشي بعد خروجها من البركة، جاعلة المكان بيئة أكثر سكيّنة.

في مغطس التعقيم كان رعاة البقر والعاملون في الحظائر يُحدّقون في وجه تمبل كما لو كانت مخلوقاً غريباً قادماً من المريخ، وكانوا يسخرون سرّاً - فيما بينهم - من طريقتها في لمس الحيوانات وتحسُّس مشاعرها. ولكن، بعد أن انتهت من تصميمها، راحوا يراقبون في ذهول كيف سارت الماشية نحو البركة من غير اكتراث، ونزلت الماء من دون أدنى توقف أو تردّد، ولا يكاد يُسمَع لها صوت أو شكوى، ولم تحدث أيّ إصابات أو وفيات، أو إضاعة للوقت من التراكم والتصادم أو الذعر الجماعي. مثل هذه الزيادة في الكفاءة نجدها في تصاميمها الأخرى جميعاً، وهو ما أكسبها احتراماً - على مضمّن - من الرجال الذين شكّكوا قبلاً في عملها وسخروا منها. وشيئاً فشيئاً ذاع صيتها في هذا المجال. صحيح أنها عانت في طفولتها التوحد والإعاقات الشديدة، ولكن هذه الإنجازات وهبتها شعوراً كبيراً بالفخر.

مع مرور السنين ازدادت معرفتها بالماشية نموّاً عن طريق البحث والتواصل الدائم مع الحيوانات، وقد توسّعت مجال عملها ليشمل حيوانات أخرى، مثل: الخنازير، فالظباء والأيائل. بعد ذلك أصبحت مستشارة مرموقة للمزارع وحدائق الحيوان، وبدأ أنها تمتلك حاسة سادسة للحياة الداخلية للحيوانات التي تتعامل معها، وقوة ملحوظة في تهدئتها، وهي نفسها بدأت تشعر أنها وصلت إلى مرحلة تتيح لها تخيّل عمليات التفكير لدى هذه الحيوانات المختلفة. لقد استند هذا كله على بحوثها العلمية المُكثّفة، إضافةً إلى قدر كبير من التفكير من داخل عقول الحيوانات، فمثلاً استطاعت أن تجزم أن ذاكرة الحيوانات وتفكيرها مدفوع - إلى

حدّ كبير- بالصور وآثار الشعور الأخرى. فالحيوانات لديها القدرة على التعلّم، ولكن عملية تفكيرها تحدث عن طريق الصور. وبالرغم من أننا قد نجد صعوبة في تخيل هذا التفكير فإننا كنّا نفكّر - قبل اختراع اللغة- بطريقة مماثلة. إن المسافة بين البشر والحيوانات ليست بذلك البُعد الكبير الذي نحب أن نُصدِّقه، وقد كانت تمبل مأسورة بهذا الترابط.

ففي تعاملها مع الماشية كانت تستطيع أن تقرأ حالتها المزاجية عن طريق حركة أذناها، ونظرات أعينها، وكانت تستشعر التوتر بالنظر إلى جلودها. ومن دراستها ديناميكية أدمغة المواشي تولد لديها شعور غريب بأن المواشي تشابه الأشخاص المصابين بالتوحد في نواح كثيرة، وكشف مسح لأدمغتها أنها تمتلك مراكز خوف تفوق ما لدى الشخص العادي بثلاثة أضعاف. كان عليها دائماً أن تتعامل مع مستويات أعلى من القلق مقارنةً بما يعانيه الأشخاص الآخرون، وكانت تلمح تهديدات مستمرة للبيئة وللماشية أيضاً بوصفها من الحيوانات التي تتعرّض للافتراس، وكانت هي الأخرى على حذر دائم وقلق مستمر، وربما كان مركز خوفها الموسّع، بحسب اعتقادها، مرده الماضي السحيق، عندما كان البشر فريسة أيضاً، بيد أن هذه التفاعلات في الوقت الحاضر قد جمّدت غالباً أو أخفيت عنّا. ولكن، نظراً إلى إصابتها بالتوحد؛ فقد احتفظ دماغها بهذه الصفة القديمة. لاحظت تمبل أوجه تشابه أخرى بين الماشية والأشخاص الذين يعانون مرض التوحد، مثل الاعتماد على العادة والروتين،

وقد قادها تفكيرها بهذه الطريقة إلى اهتمامها المبكر بسيكولوجية مرض التوحد، وتعميق دراستها في علم الأعصاب المرتبطة بالمرض. وكان لحالتها (الخروج من قمقم مرض التوحد للعمل في مجال العلوم) فضل في اكتسابها منظوراً فريداً في هذا الموضوع. ومثلما فعلت مع الحيوانات فقد كانت قادرة على استكشاف مرض التوحد من الخارج (العلم) ومن الداخل (التعاطف)، وأخذت تقرأ عن آخر الاكتشافات في هذا المرض وتربطها بتجربتها الخاصة، مُركّزة على جوانب من هذا المرض عجز العلماء الآخرون عن وصفها أو فهمها. ومع تعمقها في دراسة هذا الموضوع، وتأليفها عدّة كتب عن تجربتها، أصبحت مستشارة مشهورة وخطيبة في هذا الموضوع، ونموذجاً يحتذى به للناشئة المصابين بالتوحد.

والآن، حين تنظر إلى ما مضى من حياتها، تشعر تمبل بإحساس غريب؛ لقد خرجت من ظلام التوحد وتيهه في سنواتها الأولى، واستطاع عقلها أن يشق طريقه خارج تلك الفوضى موجهاً جزئياً في ذلك بحبها للحيوانات، وفضولها في استكشاف حياتهم الداخلية. وبتجربتها في مزرعة خالتها مع الماشية تولد لديها اهتمام بالعلم الذي فتح عقلها لدراسة مرض التوحد نفسه، ثم العودة إلى الحيوانات لأغراض حياتها المهنية. وعن طريق العلم والمراقبة العميقة فقد قدمت تصاميم مبتكرة واكتشافات فريدة من نوعها، وأدت هذه الاكتشافات إلى عودها إلى مرض التوحد مرة أخرى، وهو مجال يمكن الآن أن تُطبَّق فيه أفكارها العلمية وخبراتها العملية، ويبدو أن شكلاً من المصير كان يُوجَّهها إلى مجالات معينة بما يُمكنها من الاستكشاف والفهم لهدف واحد في التفكير تتقنه بطريقتها الخاصة البارعة.

بالنسبة إلى شخص مثل تمبل غراندن فإن إمكانية الارتقاء وتحقيق الرياسة في أيِّ ميدان يبدو حلمًا مستحيلًا في العادة؛ فالعقبات التي تعترض طريق إنسان يعاني مرض التوحد هائلة جدًا. ومع ذلك فقد تمكَّنت من شقِّ طريقها إلى اثنين من الموضوعات فتجا آفاقًا للارتقاء، ويبدو أن الحظ أو المصير الأعمى هو الذي قادها إلى ذلك، فحتى عندما كانت طفلاً عرفت بالفطرة قدراتها الطبيعية (حُبها للحيوانات، وقدراتها في التفكير البصري، وقدراتها على التركيز على شيء واحد)، واستغلت هذه القدرات بطاقتها كلها، وقد عملت هذه القدرات على رفدها بالمرونة والرغبة في التصدي للمشكِّكين كافة، وكل من عدَّوها غريبة ومختلفة، أو وجدوا الموضوعات التي اختارتها للدراسة غير تقليدية وخارجة عن المألوف. ونظرًا إلى عملها في ميدان يمكنها أن تستخدم فيه كثيرًا تعاطفها الطبيعي وطريقتها الخاصة في التفكير؛ فقد أصبحت الفتاة قادرة على سبر الأغوار العميقة في الموضوع الذي اختارته، وصولاً إلى الشعور داخل عالم الحيوان. وما إن حقَّقت الرياسة وبلغت الإتقان في هذا المجال حتى أصبحت قادرة على تطبيق مهاراتها على اهتمامها الكبير الآخر، وهو مرض التوحد.

تذكَّر: إن تحقيق الإتقان في الحياة يعتمد غالبًا على تلك الخطوات الأولى التي اتخذناها. إنها ليست فقط مسألة امتلاكنا معرفة عميقة بمهمة حياتنا، وإنما إحساسنا

بطرائقنا الخاصة في التفكير، وبوجهات نظرنا التي ننفرد بها عن الآخرين. قد لا يبدو التعاطف العميق تجاه الحيوانات أو تجاه أنواع معيَّنة من الناس مهارة أو قوة فكرية، ولكنه في الحقيقة كذلك؛ فالتعاطف له دور كبير في التعلُّم والمعرفة. وحتى العلماء الذين يشتهرون بموضوعيتهم وتجردهم نجدهم كثيرًا ما ينهمكون في تفكير يكشف عن تعاطفهم مع موضوع تخصصهم. ثمة صفات أُخرى قد نملكها، مثل الميل إلى التفكير عن طريق الأشكال البصرية، فهذه تُمثّل نقاط قوة لا نقاط ضعف، والمشكلة هي أننا - نحن البشر - نمتاز بنزعة عميقة إلى التوافق مع الآخرين، وكثيرًا ما تكون هذه الصفات التي تفصلنا عن المجموعة محل سخرية الآخرين، أو انتقاد المُعلِّمين. وغالبًا ما يوصف الأشخاص الذين يميلون إلى الإحساس البصري (بدلاً من اللغوي) في تفكيرهم وتفاعلهم بأنهم يعانون اضطراباً في القراءة (ديسليكسيا). على سبيل المثال، فإن هذه الأحكام قد تجعلنا نعتقد أن نقاط القوة التي نتميّز بها هي ضرب من الإعاقة، فنبدأ بمحاولة الالتفاف عليها وطمسها لكي نكون متوافقين مع الآخرين، بيد أن أيّ شيء فريد نتميّز به عن الآخرين هو تحديداً ما يجب أن نوليّه أعمق الانتباه، ونتكئ عليه في ارتقائنا نحو تحقيق الإتقان. إن الإتقان مثل السباحة؛ إذ من الصعب جداً التحرك إلى الأمام عندما تصدر عنّا مقاومة تعاكس اندفاعنا إلى الأمام، أو حين نسبح عكس التيار. ولهذا تعرّف نقاط قوتك، وسرّ في اتجاهها.

3. حوّل نفسك عن طريق الممارسة (الشعور بالبنان)

مثلاً أوردنا في الفصل الثاني (106)، فقد قرّر سيزار رودريغز بعد تخرجه في أكاديمية السيتيدال العسكرية عام 1981م أن يدخل في برنامج تدريب الطيارين في سلاح الجو الأمريكي، ولكن سرعان ما اضطر إلى مواجهة الواقع؛ إذ لم يكن يملك المهبة الطبيعية لقيادة طائرة نفاثة. كان من بين الملتحقين بالبرنامج مجموعة تلاميذ تُعرّف باسم المجموعة الذهبية، وقد بدأ أنهم يمتلكون مهبة الطيران بسرعات عالية، كانوا يفعلون ذلك بمنتهى الراحة والاستمتاع. منذ البداية أحب رودريغز الطيران، وكان لديه طموح أن يصبح طياراً مقاتلاً، وهو موقع مرموق لا يصله أحد سوى النخبة في سلاح الجو، ولكنه لن يستطيع الوصول إلى هذا الهدف إلا إذا تمكّن - بطريقة ما - أن يُحسّن مهاراته لتماثل مهارة

المجموعة الذهبية. كانت مشكلته أنه سرعان ما دهمته وطغت عليه كثرة المعلومات التي يتعيّن على الطيار أن يستوعبها، وكان مفتاح ذلك هو أن يتعلّم نمطًا يقوم على قراءة سريعة لجميع الأدوات في قمرة القيادة من عدادات وأجهزة قياس- قراءة سريعة هنا وهناك- مع الحفاظ على شعور شامل لموقعه في السماء. ويمكن لفقدان الوعي الظرفي أن يُفضي إلى نتائج قاتلة. بالنسبة إلى رودريغز لم تكن هذه القدرة على القراءة المسحية السريعة لتأتي إلّا بعد ساعات طويلة من الممارسة والتدريب على جهاز محاكاة الطيران حتى تصبح تلقائيةً نسبيًا.

سبق لرودرiguez أن شارك في النشاط الرياضي في المدرسة الثانوية، وكان يعرف قيمة الممارسة والتكرار، ولكن تعلّم الطيران هو أكثر تعقيدًا من أيّ رياضة أو مهارة حاول إتقانها في أيّ وقت مضى. وما إن أصبح مرتاحًا مع أدوات التحكم في الطائرة حتى واجهته مهمة شاقة أخرى هي تنفيذ مختلف مناورات الطيران (مثل الالتفاف)، وتطوير إحساس بالسرعات المُحدّدة اللازمة لذلك؛ فهذا كله يحتاج إلى حسابات ذهنية سريعة جدًا. إن أفراد المجموعة الذهبية يستطيعون تنفيذ هذه المناورات بصورة عفوية من دون عناء. أمّا رودريغز فقد تطلّب منه ذلك الكثير من التكرار والتركيز الشديدين في كل مرة يدخل فيها قمرة القيادة، وقد لاحظ أحيانًا أن جسمه يدخل القمرة قبل عقله، وأن أعصابه وأصابعه تحاول أن تستشعر كيف يكون الإحساس بقيادة المناورة، ثم يستهدف عن وعي إعادة تشكيل هذا الشعور.

بعد اجتياز هذه المرحلة، كان عليه أن يتعلّم كيفية الطيران ضمن سرب من الطائرات التي تُحلّق معًا، وقد تطلّب ذلك العمل مع طيارين آخرين ضمن فريق ملتزم بدرجة معقّدة من التنسيق. كان الطيران ضمن تشكيل السرب يعني أداء مجموعة من المهارات بدقة وتوازن في آن معًا، وكانت تعقيدات ذلك كله مُحيّرة للعقل، وكان جزء منه مدفوعًا بالإثارة الكبيرة التي شعر بها من قيادة الطائرة والعمل مع الفريق، وكان الجزء الآخر منه مدفوعًا بالتحدي. لاحظ رودريغز أنه بسيطرته على الطائرة وتنفيذ مختلف المناورات قد طوّر قدرة حادة على التركيز، وأصبح بوسعه أن يناغم بين هذه المهارات جميعها، وينغمس تمامًا في العملية كلها، وقد سهّل عليه ذلك تعلّم كل مجموعة جديدة من المهارات وإتقانها.

شيئاً فشيئاً، وبالمتابعة والممارسة المحضة استطاع أن يرتقي بنفسه إلى أعلى مرتبة في صفه، وكان يُعدُّ من القلائل الذين وقع عليهم الاختيار لقيادة الطائرات المقاتلة. ولكن بقيت أمامه عقبة واحدة أخيرة لبلوغ القمة، هي الطيران في التدريبات الشاملة التي تشارك فيها مختلف فروع القوات المسلحة. في هذه الحالة يتوقف كل شيء على فهم المهمة الشاملة والعمل ضمن عمليات تُنفَّذ على الأرض وفي الجو والبحر وفق تنسيق معقّد ودقيق، وهذا الأمر يحتاج إلى مستوى أعلى من الوعي، ففي لحظات - خلال هذه المناورات - كان رودريغز ينتابه إحساس غريب؛ إذ لم يعد يُركّز على عناصر الطيران المادية أو مُكوّنات المهارة الفردية، بل كان يفكّر ويشعر بالحملة الشاملة، وانسجامة فيها بطريقة سلسة. لقد كان إحساساً بالإتقان، وكان سريع الزوال. لاحظ رودريغز أيضاً وجود هوة طفيفة بينه وبين أفراد المجموعة الذهبية؛ فقد اعتمدوا من مدة طويلة على مهاراتهم الطبيعية التي لم يُهدّبوها ضمن مستوى التركيز نفسه الذي بات يمتلكه الآن. لقد استطاع أن يتجاوزهم في نواحٍ كثيرة، وعقب مشاركته في عدد قليل من هذه التمارين ارتقى رودريغز إلى مرتبة النخبة.

في التاسع عشر من شهر كانون الآخر (يناير) عام 1991م، وفي غضون دقائق معدودة، حان الوقت الذي وضع فيه كل ما اكتسبه من تدريب وممارسة للاختبار النهائي. قبل بضعة أيام سنّت الولايات المتحدة الأمريكية وقوات التحالف عملية «عاصفة الصحراء» ردّاً على غزو صدام حسين للكويت. في صبيحة ذلك اليوم انطلق رودريغز بطائرته برفقة طائرتي أخرى يقودها كريغ «مول» أندرهيل الذي كان يؤدي دور الطائرتي الجناح في التشكيل، وكانا قد وصلا العراق ضمن قوة ضاربة مؤلّفة من (36) طائرتي كانت متجهة نحو هدفها قرب بغداد، وكانت تلك أول مشاركة له في معركة حقيقية. وبينما كان رودريغز يُحلّق بطائرتي إف-15 إس رصد هو ومول بسرعة زوجاً من مقاتلات الميغ العراقية عن بُعد، فقرّرا مطاردتهما. وفي غضون ثوانٍ أدركا أنّهما قد استدرجا إلى فخٍّ، وتحولّ المطاردان إلى مُطاردين؛ إذ التفت طائرتي الميغ لتتنقض عليهما من جهة غير متوقّعة.

بعد أن تحقّقا من سرعة اقتراب إحدى الطائرتي المعادية نحوهما، سارع رودريغز فجأة إلى طرح خزانات الوقود الإضافية لكسب المزيد من السرعة والقدرة على المناورة.

ثم انخفض بطائرته نحو الأرض، تحت مستوى طائرة الميغ المتجهة نحوه، وفعل كل ما في وسعه ليحول دون أن يرصده العدو بالرادار، بما في ذلك الطيران بزوايا قائمة - قدر الإمكان - لجعل طائرته تبدو نحيلة؛ فمن دون قراءة الرادار لا تستطيع طائرة الميغ إطلاق صاروخها. كل شيء كان يحدث بسرعة، وفي أي لحظة يمكن لرادار طائرته أن يومض (يدل ذلك على أن العدو قد ثبتته على هدف الصاروخ) فهو والميت سواء. كانت لديه فرصة واحدة للنجاة هي مراوغة طائرة الميغ حتى إذا اقتربت منه لإطلاق الصاروخ استدرجها إلى معركة التحام قريب (منافسة حادة في معركة دائرية في الهواء، وهي نادرة الحدوث في الحروب الحديثة). في الجزء الخلفي من عقله كان يحاول أيضًا كسب ما يكفي من الوقت للطيار الجناح لمساعدته، وكان بإمكانه الشعور - بصورة أو بأخرى - بوجود مول خلفه من مسافة بعيدة، ولكن الوقت سيجلب معه خطرًا آخر هو جود طائرة الميغ الثانية في الساحة. حاول رودريغز كل المناورات التي تعلمها، ورأى الميغ تقترب منه أكثر وأكثر، وفجأة تحدث إليه مول الذي كان يتبعه وقد ناور بطائرته ليعود إلى موقعه في السرب. ولمَّا نظر رودريغز فوق كتفيه شاهد طائرة الميغ المعادية وهي تحترق؛ لقد أصابها صاروخ مول. بعد أن تكشفت المطاردة كان كل شيء قد سار مثلما أراد رودريغز. ولكن، لا وقت للاسترخاء؛ فطائرة الميغ الثانية كانت تقترب منهما بسرعة. صعد مول بطائرته إلى ارتفاع (20,000) قدم، وبينما كانت طائرة الميغ تنقض على طائرة رودريغز أدرك قائدها وجود مول فوقه، وبدأ يناور صاعدًا إلى الأعلى وهابطًا إلى الأسفل محاولًا تجنب الوقوع بينهما.

مستفيدًا من لحظة الارتباك هذه، كان رودريغز قادرًا على الدخول في دائرة التفاف طائرة الميغ، وتحول المشهد الآن إلى التحام كلاسيكي قريب في دائرتين، وكانت كل طائرة تحاول الالتفاف دائريًا للوصول إلى ذيل الطائرة الأخرى ووضعها في مدى رمايتها النارية، والنزول الحاد نحو الأرض بعد كل عملية التفاف ناجحة. تعاقبت الطائرتان في الدوران حول بعضهما بعضًا دورات عدّة. وأخيرًا، وعلى ارتفاع (3600) قدم، تمكّن رودريغز من تثبيت الطائرة المعادية في هدف الصاروخ، وراح الطيار العراقي يُنفذ مناورة صعبة تجنبًا للإصابة، متجهًا مباشرة نحو الأرض، ومُتقلّبًا في الحركة إلى الأعلى والأسفل، ومحاولًا

الالتفاف في الاتجاه المعاكس للهبوط، ولكن الثواني التي مضت في الالتحام القريب أفقدته الوعي بمدى قربه من الأرض، فاصطدم بالأرض وتحطمت طائرته في الصحراء.

عاد مول ورودرiguez إلى القاعدة لتقديم ملخص بالمهمة إلى الرؤساء، ولكن رودريغز حين استعرض كل شيء وشاهد شريط الفيديو الذي صورّ الالتحام، شعر بإحساس غريب؛ إنه لا يستطيع أن يتذكّر حقاً أيّ لحظة من ذلك. لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة؛ إذ لم تستغرق المواجهة الكاملة مع طائرتي الميغ سوى (3-4) دقائق، ولم يدم الالتحام القريب النهائي سوى بضع ثوانٍ.

لا بد أنه كان يفكّر بطريقة ما؛ فقد نفّذ بعض المناورات بدقة تقارب الكمال، فمثلاً لم يتذكّر أنه اتخذ قراراً بطرح خزانات الوقود الإضافية، ولا يعرف من أين جاءته هذه الفكرة، ولا بد أن يكون ذلك شيء قد تعلّمه سابقاً، وخطر له في تلك اللحظة، ونفّذه بسهولة وسلاسة فكان سبباً في إنقاذ حياته. أمّا مناورات المراوغة التي نفّذها تجاه طائرة الميغ الأولى فكانت صادمة لرؤسائه؛ لقد كانت سريعة وفاعلة، ولا بد أن وعيه في أثناء الالتحام القتالي القريب كان ثاقباً جداً؛ فقد نجح في الاستدارة خلف ذيل طائرة الخصم بسرعة كبيرة، ولم يغفل الانتباه إلى سطح الأرض حين انحدر إلى الأسفل. ولكن، كيف يمكنه تفسير هذه المناورات كلها؟ إنه لا يكاد يتذكّرها، وكل ما يعرفه هو أنه في تلك اللحظات لم ينتابه أيُّ شعور بالخوف، بل إن تدفّق الأدرينالين الشديد هو الذي جعل جسمه وعقله يعملان في انسجام تام، في نوع من التفكير الذي ينتقل بسرعة تقاس بأجزاء من الثانية، وهي سرعة خاطفة لا يمكنه تحليلها.

لم يستطع رودريغز النوم مدة ثلاثة أيام بعد تلك الواقعة، ولا يزال الأدرينالين مرتفعاً في عروقه. لقد جعلته هذه التجربة يدرك أن الجسم يمتلك قدرات فيزيولوجية كامنة (تنتلق في اللحظات الدراماتيكية) تعمل على رفع العقل إلى مستوى أعلى من التركيز. تابع رودريغز مسيرته ليضيف إلى سجله إسقاط طائرة ثانية في حرب عاصفة الصحراء، وطائرة ثالثة في حملة كوسوفو عام 1999م، وهو سجل يفوق ما حقّقه أيُّ طيار آخر في المعارك الجوية الحديثة، ليحصل على لقب الآس الأمريكي الأخير.

بوجه عام، نشهد في حياتنا اليومية ونشاطنا الواعي انفصالاً بين العقل والجسم؛ فتحن نفكر- خلافاً للحيوانات- في أجسامنا وحركاتنا وأعمالنا الجسدية، وعندما نبدأ بتعلم أي مهارة تحتوي على عنصر مادي يصبح هذا الفصل أكثر وضوحاً. علينا أن نفكر في مختلف الأفعال المعنوية، والخطوات التي يجب أن نتبع، ونحن ندرك هذه البطء، وكيف تستجيب أجسامنا بصورة محرّجة. في بعض الحالات، وبعد أن يتحسن أداؤنا، تأتينا لمحات فكرية بأن هذه العملية قد تحدث بطريقة مختلفة، وكيف يكون الشعور بممارسة المهارة بسلاسة من دون أن يقف العقل حجر عثرة في طريق الجسم. بمثل هذه اللمحات والخواطر يمكننا إدراك الهدف الذي نسعى إليه، وإذا أخذنا ممارستنا بعيداً إلى الحد الكافي الذي تصبح فيه المهارة تلقائية تكوّن لدينا إحساس أن العقل والجسم يعملان ضمن فريق واحد.

وفي حال تعلمنا مهارة معقّدة، مثل قيادة طائرة في معركة، فإنه يجب علينا إتقان سلسلة من المهارات البسيطة، واحدة فوق أخرى. وفي كل مرة تصبح فيها مهارة واحدة تلقائية سيتحرّر العقل موجهًا تركيزه على مهارة أعلى. وفي نهاية هذه العملية، عندما لا يوجد المزيد من المهارات البسيطة للتعلم، يكون الدماغ قد استوعب كمًا هائلاً من المعلومات التي تنضوي جميعها في نظامنا العصبي، وتغدو مختلف المهارات المعقّدة الآن في داخلنا وعلى أطراف أصابعنا. إننا نفكر، ولكن بطريقة مختلفة بعد اندماج الجسم في العقل وانصهارهما تماماً. لقد تحوّلنا إلى مستوى آخر، وأصبحنا نملك شكلاً من أشكال الذكاء يسمح لنا باستخدام قوتنا البديهية الحدسية إلى الحد الموجود لدى الحيوانات، ولكن فقط عن طريق ممارسة واعية متعمدة ممتدة.

إننا نميل في ثقافتنا إلى تشويه سمعة الممارسة، ونريد أن نتخيّل إنجازات عظيمة تحدث بصورة طبيعية (وجود علامة على عبقرية شخص ما أو موهبة متفوقة). وفي الواقع، فإن الوصول إلى مستوى عالٍ من الإنجاز عن طريق الممارسة يبدو عادياً جداً، وغير ملهم، يضاف إلى ذلك أننا لا نريد أن نضطر إلى التفكير (10000-20000) ساعة، وهي المدة التي يتطلبها هذا الإتقان. إن هذه القيم التي نحملها تُفضي إلى نتائج عكسية؛ إنها تحجب عنّا حقيقة أن أي شخص يمكنه أن يصل إلى مثل هذه المراتب عن طريق الجهد المثابر، وهو

أمر مشجّع لنا جميعاً. لقد حان الوقت لقلب هذا التحيز ضد الجهد الواعي رأساً على عقب، والبدء بالنظر إلى القدرات التي نكتسبها من الممارسة والانضباط بوصفها مصدرًا مهمًا للإلهام جديرًا بالإعجاب. إن القدرة على إتقان مهارات معقّدة عن طريق بناء الروابط في الدماغ هي نتاج ملايين السنين من التطوُّر، ومصدر قدراتنا المادية الثقافية جميعها. وعندما نشعر بالوحدة الممكنة للعقل والجسم في المراحل المبكرة من الممارسة فإننا نكون منطلقين من هذه القدرة؛ إنها العزيمة الطبيعية لدماغنا أن نرغب التحرك في هذا الاتجاه ونسعى إليه لكي نزيد قدراته عن طريق التكرار. وفي المقابل، فإن فقدان الاتصال بهذا الميل الطبيعي هو ذروة الجنون، وسيؤدّي إلى عالم لا تجد فيه أحدًا لديه الصبر لإتقان المهارات المعقّدة. ولهذا يجب علينا - بوصفنا أفرادًا - أن نقاوم هذا الاتجاه، وأن نحترم القدرات التحويلية التي نكتسبها من الممارسة.

4. استوعب التفاصيل كلها (قوة الحياة)

كان ليوناردو دافينشي ابنًا غير شرعي لكاتب العدل السيد بييرو دافنشي، فحُرِم الدراسة والممارسة المهنية (مثل: الطب التقليدي، والقانون) والتعليم العالي (لمعرفة المزيد عن ليوناردو دافينشي، 30-35) وحتى عندما كان صبيًا ناشئًا في بلدة فينشي قرب فلورنسا فإنه لم يتلقَّ سوى القليل من التعليم الرسمي، وكان يقضى الكثير من وقته في التجوُّل في مختلف أنحاء الريف والمغامرة في الغابات خارج بلدته، وكان يسحره التنوع الرائع للحياة الموجودة فيه، والتكوينات الصخرية المثيرة والشلالات التي كانت جزءًا حاضراً من المشهد. ولمّا كان والده يعمل كاتبًا للعدل فقد توافر قدر لا بأس به من الورق (كان سلعة نادرة في ذلك الوقت) في منزل العائلة، ومع شعوره برغبة عارمة لرسم كل ما رآه في تجوُّله بدأ يختلس من قراطيس الورق ويحملها معه.

كان يجلس على صخرة يرسم الحشرات والطيور والزهور التي أخذت عقله، ولم يسبق له أن تلقى أيّ تعليمات أو دروس في الرسم. لقد كان ببساطة يرسم ما يشاهده، وبدأ يلاحظ أنه في محاولته تقييد هذه الأشياء على الورق كان عليه أن يفكّر بعمق، وأن يُركّز

على التفاصيل التي تتغاضى عنها العين غالبًا. ففي رسم النباتات - مثلًا - بدأ يلاحظ الفروق الدقيقة في الأسدية لدى الزهور المختلفة، وكيف أن بعضها مختلف عن بعض، ولاحظ التحولات التي تطرأ على هذه النباتات في مرحلة الإزهار، مُعبّرًا عن هذه التغييرات في رسوم متتابعة. وفي ذهابه عميقًا في تفاصيلها كانت تمرُّ به خواطر عابرة بخصوص ما يضيفي هذه الحيوية على النباتات من الداخل، وما يجعلها متميِّزة وحيَّة، ثم ما لبث أن صار التفكير والرسم مندمجًا في ذهنه. وعن طريق رسم الأشياء في العالم من حوله أصبح يفهمها ويعرف تفاصيلها.

كان تقدُّمه في الرسم مذهلاً جدًّا حتى إن والده فكَّر في البحث عن مكان يتدرَّب فيه ليوناردو على الرسم في أحد استوديوهات الرسم المختلفة في فلورنسا. كان العمل في مجال الفنون في ذلك الوقت واحدًا من عدد قليل من المهن المفتوحة أمام الأبناء غير الشرعيين. وفي عام 1466م، وباستخدام نفوذه بوصفه كاتب عدل يحظى بالاحترام في فلورنسا استطاع تأمين وظيفة تلمذة لابنه البالغ من العمر أربعة عشر عامًا في ورشة عمل الفنان الكبير فيروشيو. كان هذا حلًّا مثاليًّا بالنسبة إلى ليوناردو؛ إذ كان فيروشيو شديد التأثر بروح التوجُّه المستنير في ذلك الوقت، وكان يوجِّه تلاميذه إلى انتهاج صرامة العلماء في عملهم، فمثلًا كانت قوالب الجص (الجبس) لتمثيل البشر توضع حول الاستوديو، وتكسى بقطع مختلفة من القماش، وكان على المُتدرِّبين أن يتعلَّموا التركيز بعمق؛ لكي يتعرَّفوا مختلف التجاعيد والظلال التي تتشكَّل من ذلك، كان عليهم أن يتعلَّموا كيف يعيدون إنتاجها على نحوٍ يماثل الواقع. أحب ليوناردو التعلُّم بهذه الطريقة، وسرعان ما بات واضحًا لفيروشيو أن تلميذه الشاب قد يملك عينًا استثنائيةً في التقاط التفاصيل.

في مطلع عام 1472م كان ليوناردو أحد مساعدي فيروشيو الذين يُعوَّل عليهم، وكان يساعده على إنجاز لوحاته الكبيرة، ويأخذ على عاتقه قدرًا لا بأس به من المسؤولية. ففي لوحة فيروشيو «معمودية المسيح» كُلف ليوناردو بمهمة رسم أحد الملكين على جانب اللوحة، وكان هذا العمل هو أقدم مثال لدينا على لوحاته. عندما رأى فيروشيو ما فعله ليوناردو في اللوحة أصابه الذهول؛ فقد كان وجه الملاك مرسومًا بجودة ومهارة لم يسبق لها مثيل؛

إذ كان الوجه يشع حرفياً من الداخل. وكان النظر إلى وجه الملاك يبدو حقيقياً وخارقاً للطبيعة ومُعبراً.

بالرغم من أن العمل ظهر كالسحر لفيروشيوفان الأشعة السينية كشفت حديثاً بعضاً من أسرار تقنية ليوناردو المبكرة؛ فقد كانت طبقات الطلاء التي استخدمها رقيقة جداً، وكانت لمسات فرشاته غير مرئية، وكان يضيف - تدريجياً - طبقة من الطلاء فوق أخرى، وكل طبقة أكثر قتامة من سابقتها. فبهذه الطريقة، وتجريبه أصابعاً مختلفة عدّة، علّم نفسه كيفية التقاط الملامح الدقيقة للجسد البشري. وبسبب الطبقات الرقيقة؛ فقد كان أيّ ضوء يقع على اللوحة يبدو أنه يمرُّ خلال وجه الملاك فيجعله يشعُّ نوراً من الداخل.

ما كشفه هذا العمل هو أنه في السنوات الست التي عمل فيها في الاستوديو لا بد أنه انكب على دراسة مستفيضة لمختلف الأصابع، وجوّد أسلوباً في تصفيف طبقات الرسم يجعل كل شيء يبدو ناعماً وناصباً بالحياة، مع شعور بالتماسك والعمق، ولا بد أنه أيضاً أمضى قدراً كبيراً من الوقت في دراسة تكوين الجسد البشري نفسه، وهذا يكشف مدى الصبر الذي كان يتحلّى به ليوناردو، ما يعني أنه كان يشعر بقدر كبير من الحُب لهذا العمل التفصيلي.

على مرّ السنين، وبعد أن غادر استوديو فيروشيوف، وأصبح فنّاناً مستقلاً يحظى بالاحترام، وضع ليوناردو فلسفة توجّه أعماله الفنية، وأعماله العلمية فيما بعد؛ فقد لاحظ أن الفنانين الآخرين يبدوون عمومًا بصورة شاملة يريدون رسمها، صورة يكون لها تأثير مذهل أو روحي، ولكن عقل ليوناردو كان يعمل بصورة مختلفة؛ إذ كان يجد نفسه يركّز أولاً على التفاصيل: الأشكال المختلفة للأنوف، والانعطافات الممكنة في الفم التي تشير إلى حالة مزاجية، والأوردة في اليد، والعقد الملتفة في الأشجار، فهذه التفاصيل كانت تأسر عقله، وأصبح يعتقد أن التركيز عليها وفهمها قد قرّبه من سرّ الحياة نفسها. كانت عظام اليد أو كفاف شفاه الإنسان مصدر إلهام له بدرجة لا تقل عن أيّ صورة دينية، وكان الرسم بالنسبة إليه هو سعيًا للحصول على قوة الحياة التي تحرك كل شيء. وفي عملية الرسم، كان يعتقد أنه قادر على إيجاد عمل أكثر عاطفة وعمقًا. ولتحقيق هذا المسعى ابتكر سلسلة من التمارين التي التزم بها بصرامة تامة.

كان من عادته في النهار أن يتمشى وقتاً طويلاً في المدينة والريف، وكانت عيناه تلتقطان تفاصيل العالم المرئي كلها، وكان يُجبر نفسه على ملاحظة شيء جديد حين ينظر إلى كل شيء مألوف لديه. وفي الليل، وقبل خلوده للنوم، يستعرض في ذهنه هذه الأشياء المختلفة وتفاصيلها، ويغرسها في ذاكرته. لقد كان مهووساً بالتقاط جوهر الوجه الإنساني بكل ما فيه من تنوع متألق. ولتحقيق هذا الغرض كان يزور كل مكان يمكن تخيله (المواخير، الدور العامة، السجون، المستشفيات، قاعات الصلاة في الكنائس، المهرجانات العامة) ليتعرف أصناف الناس. وفي دفتر ملاحظاته الذي كان دائماً في متناول يده يرسم مجموعة متنوعة ورائعة لتقاسيم الوجوه: المقطبة، والضاحكة، والمتألّمة، والمبتهجة. كان يتبع الناس في الشوارع ممن لهم سحنة لم يسبق له أن رأى مثلاً، أو يعانون نوعاً من التشوه الجسدي، ثم يرسمهم وهو يسير على قدميه، وكان أيضاً يملأ ألباقاً من الورق برسوم لعشرات من الأنوف المختلفة، ويبدو أنه كان مهتماً بوجه خاص بالشفقتين، إذ يجدهما مُعبّرتين تماماً كالعينين. كان يُكرّر هذه التمارين كلها في أوقات مختلفة من اليوم، ليضمن القدرة على تمثيل التأثيرات المختلفة التي تُحدثها تغييرات الضوء في الوجه البشري.

في لوحته العظيمة المُسمّاة العشاء الأخير، نما شعور زبونه دوق ميلانو بالغضب بسبب طول الوقت الذي استغرقه ليوناردو في رسم اللوحة، وكان يبدو أن كل ما تبقى لإنائها هو ملء وجه يهوذا، ولكن ليوناردو لم يتمكّن من العثور على نموذج ملائم لذلك الوجه، فلجأ إلى التردد على أسوأ أحياء ميلان للعثور على التعبير الأكثر خساسة ليجعل وجه يهوذا على غراره، ولكن الحظ لم يحالفه في ذلك. قبل الدوق تفسيره وعذره، ثم لبث ليوناردو بعض الوقت ليجد أخيراً النموذج الذي يبحث عنه.

التزم ليوناردو بهذه الصرامة نفسها في رسمه الأجسام وهي في حالة الحركة، وكان من فلسفته أن الحياة تُحددها الحركة المتتابعة والتغيير المستمر، وأنه يتعيّن على الفنان أن يكون قادراً على تقديم الإحساس بالحركة الديناميكية في الصورة الثابتة. منذ أن كان شاباً كان لديه هاجس من تيارات المياه، فأصبح بارعاً جداً في التقاط منظر شلالات الماء، وجداوله، وتدفعه السريع، وتمثيل ذلك كله. وفيما يخص الناس فقد كان يقضي ساعات وهو

جالس على جانب الشارع، يراقب المارة في مشيهم، ويرسم باستعجال الخطوط العريضة لأجسامهم، مُقيِّداً حركاتهم المختلفة بتسلسل من التوقف لإلقاء نظرة ثم متابعة الرسم (كان قادراً في هذه المرحلة على الرسم بسرعة لا تُصدّق). وفي المنزل كان يستكمل ملء تلك الخطوط العريضة. ولتمرين عينيّه على متابعة الحركة عموماً ابتكر سلسلة كاملة من التمارين المختلفة، فكتب - مثلاً - في أحد الأيام في دفتر ملاحظاته: « سأرسم غداً صوراً ظلّيةً مختلفة الأشكال على ورق مقوّى، ثم أرمي بها من أعلى الشرفة في الهواء، ثم ارسم الحركات التي تصدر عن كلّ منها في مراحل مختلفة من السقوط».

لقد دفعته رغبته القوية في الوصول إلى جوهر الحياة عن طريق استكشاف تفاصيلها إلى عمل بحث مُفصّل عن تشريح جسم الإنسان والحيوان، فقد سعى ليوناردو إلى رسم الإنسان أو القطة من الداخل الى الخارج؛ ولهذا أخذ يُشرّح الجثث وحده، وينشر العظام والجماجم، وحرص على حضور عمليات التشريح حتى إنه رأى عن قرب بنية العضلات والأعصاب، وقد انمازت رسومه التشريحية بالواقعية والدقة بصورة تفوق مثيلاتها في عصره.

بدا ليوناردو في نظر الفنانين مصاباً بالجنون لهذا الاهتمام المفرط بالتفاصيل، ولكن نتائج هذه الممارسة الصارمة أتت أكلها في بعض اللوحات التي أنجزها، حيث يمكن للناظر أن يشاهدها، ويشعر بها، ويُميّزها عن غيرها من الرسوم. كانت المناظر الطبيعية في خلفيات لوحاته تبدو مفعمة بالحياة على نحوٍ لا نظير له في رسوم الفنانين الآخرين في عصره؛ فكل زهرة، وفرع، وورقة أو حجر رُسم بأدق التفاصيل، ولكن هذه الخلفيات لم توضع في اللوحة للزينة فحسب؛ ففي تأثير يُعرّف باسم مزج الألوان التدريجي، وهو تأثير نجده بوجه خاص في لوحاته، كان ليوناردو يخفض أجزاء من هذه الخلفيات إلى الحدّ الذي تنصهر معه في المقدمة، وتبعث تأثيراً في الناظر يشبه تأثير الأحلام، وهذا كله جزء من فكرته التي ترى أن أشكال الحياة كلها مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً عميقاً، ومنصهرة ضمن مستوى ما.

وكانت لوحة الموناليزا قد تضرّرت كثيراً من محاولات تنظيفها وترميمها في الماضي، فأصبح صعباً علينا رؤيتها مثلما كانت في الأصل، ولا سيما بعدما صدمت خصائصها

المذهلة الجمهور. ولحسن الحظ، فقد وصفها الناقد فاساري قبل أن تصبح بحالتها اليائسة هذه: «كان الحاجبان يظهران كثيفين في مكان ورقيقين في مكان آخر، ومسامات الجلد لم تكن أكثر حيوية. أمّا الأنف، مع المنخر الوردى الحساس المبهج، فكان هو الحياة نفسها، وبدا تشكيل الفم، حيث تندمج حمرة الشفاه في لون البشرة في الوجه، أشبه بالمخلوق من لحم حيٍّ، لا من الألوان. وفي تجويف الحلق يمكن للناظر أن يلحظ نبض الشرايين».

بعد مضي زمن طويل على وفاة ليوناردو لا تزال لوحاته تحتفظ بتأثيراتها المؤرقة والمعاودة في المشاهدين، وقد سُرح عدد من حراس الأمن في المتاحف المنتشرة في مختلف أنحاء العالم بسبب علاقتهم الغريبة والمهووسة بتلك اللوحات، وبقيت لوحات ليوناردو هي أكثرها تعرُّضًا للتخريب على مرّ تاريخ الفن، وهذا كله يدل على قوة عمله في إثارة أعمق العواطف الباطنية.

كانت المشكلة الرئيسة التي تواجه الفنانين في عهد ليوناردو دافينشي تتمثل في الضغط المستمر لإنتاج المزيد من الأعمال الفنية. كان عليهم زيادة عدد الأعمال لضمان تلقي العروض المتتالية، والبقاء في الساحة العامة، وقد أثر ذلك في جودة أعمالهم، وانتشر بينهم أسلوب يُمكن الفنانين - على وجه السرعة - من توليد تأثيرات في اللوحة من شأنها أن تثير المشاهدين سطحيًا. ولإيجاد مثل هذه التأثيرات كانوا يعتمدون على الألوان الزاهية، واستخدام المجاورة والتراكيب غير العادية، والمشاهد الدرامية. في هذه العملية كانوا يخفون حتمًا التفاصيل في الخلفية، وحتى في الأشخاص الذين يُصوِّرونهم، ولم يولوا الزهور والأشجار وأيدي الشخصيات في المقدمة اهتمامًا كبيرًا، كان عليهم أن يُلمّعوا السطح فحسب.

أدرك ليوناردو هذه الحقيقة في بداية مسيرته، وتسببت في إزعاجه؛ إذ كانت تعارض طبيعته من وجهين؛ أولهما أنه كان يكره الشعور بالاستعجال في أيّ شيء، وثانيهما أنه كان يحب غمر نفسه في التفاصيل. ولهذا لم يكن يعبأ بصنع التأثيرات السطحية؛ إذ كانت لديه طاقة توافقة إلى فهم أشكال الحياة من الداخل إلى الخارج، وفهم القوة التي تجعلها متحركة، وكان يُعبّر عن ذلك كله بطريقة ما على سطح اللوحة الفنية. وهكذا، نظرًا إلى عدم انسجامه مع تلك البيئّة؛ فقد اختار أن يذهب في دربه الغريب الخاص، مازجًا بين العلم

والفن، ولاستكمال بحثه كان عليه أن يصبح ما أسماه «عالمياً»، كان عليه في كل شيء يرسمه أن يكون قادراً على رسم تفاصيله جميعها، وأن يزيد هذه المعرفة إلى أقصى حدٍّ ممكن، وإلى أكبر عدد ممكن من الموضوعات التي يمكنه دراستها، وبفضل هذا التراكم الهائل من هذه التفاصيل فقد أصبح جوهر الحياة نفسها ظاهراً له، وأصبح فهمه لقوة الحياة هذه بارزاً في أعماله الفنية.

في عملك الخاص يجب أن تتبع مسار ليوناردو؛ فمعظم الناس ليس لديهم الصبر لجعل عقولهم تستوعب النقاط الدقيقة والتفصيلات التي هي في جوهرها جزء من أعمالهم. فهم في عجلة من أمرهم لإيجاد تأثيرات برّاقة وصنع البهرجة التي تجلب الانتباه؛ إنهم يفكّرون في خفقات الفرشاة الكبيرة. وستكشف أعمالهم - لا محالة - عن افتقارهم إلى الاهتمام بالتفاصيل؛ لأنها لا تتصل عميقاً بالجمهور، وستبدو واهية. وإذا حدث أن نالت اهتماماً ما فإن هذا الاهتمام سيكون عابراً. ولهذا عليك أن تنظر إلى كل ما تتجه على أساس أن له حياةً وحضوراً خاصاً به، وهذا الحضور قد يكون عميقاً مؤثراً نابضاً بالحياة، وقد يكون ضعيفاً، وبلا حياة. فالشخصية في الرواية - مثلاً - تبدو نابضة بالحياة للقارئ إذا بذل الكاتب جهداً كبيراً في تخيل تفاصيلها. علماً بأن الكاتب لا يحتاج إلى بسط التفاصيل حرفياً؛ لأن القراء سيشعرون بها بوساطة الرواية، ويلمسون مستوى البحث الذي بُذل في إيجادها. ختاماً، إن الكائنات الحية جميعها هي مزيج من مستويات معقدة من التفاصيل، وتنشط فيها الحياة بفعل الديناميكية التي تربط بينها. فبعد أن تبدأ رؤية عملك بوصفه كائنًا حيًا فإن سبيلك إلى الإتقان هو أن تدرس هذه التفاصيل وتستوعبها عالمياً إلى المرحلة التي تجعلك تشعر بقوة الحياة، وتكون قادراً على التعبير عنها في عملك بلا عناء.

5. وسّع مدى رؤيتك (المنظور العالمي)

في وقت مبكر من مسيرته المهنية مُدرّباً للملاكمة شعر فريدي روتش أنه عرف العمل جيداً بما يكفي لتحقيق نجاح كبير فيه. (لتعرّف المزيد عن فريدي روتش، 54-57 و 166-169). وكان روتش قد مارس الملاكمة مُحترفاً سنوات عدّة، وكان لديه شعور الملاكم تجاه اللعبة، وقد تلقى تدريبه على يد المُدرّب الأسطوري إدي فنتش الذي كان درّب جو فررايزر

وغيره من الملاكمين الكبار. عندما انتهت مهنة روتش في احتراف الملاكمة منتصف ثمانينيات القرن الماضي عمل مُدرِّبًا مساعدًا بضع سنوات لدى فِتْش نفسه. ومن تلقاء نفسه وضع روتش تقنية جديدة في تدريب الملاكمة تعتمد على استخدام قفاز السجّال. وبارتداء هذه القفاز الكبيرة أصبح بإمكانه محاكاة المنازلة الفعلية مع تلاميذه، وتعليمهم في الحلبة مباشرة. وقد أضاف هذا الأسلوب بُعْدًا آخَرَ لتعليماته؛ إذ كان يعمل بجدّ لبناء علاقة شخصية بالملاكمين الذين يُدرِّبهم. وأخيرًا، طوّر ممارسة دراسة أشرطة الفيديو التي تُظهر أداء الخصم الذي سينازله تلميذه، ليدرّس أساليبه بعمق، ويبتكر إستراتيجية مضادة فاعلة بناءً على هذه الدراسة.

بالرغم من هذا كله فقد شعر روتش أن شيئًا ما مفقود؛ إذ كان كل شيء يسير على ما يرام في التدريب، ولكن في المواجهة الفعلية كان يشاهد - من زاوية الحلبة مع شعوره بالعجز - كيف يعود تلاميذه الملاكمون إلى عاداتهم بدلًا من استخدام الأسلوب الذي درّبهم عليه، أو يُطبّقون جزءًا من الإستراتيجية التي وضعها لهم. وأحيانًا يكون هو والمُتدربون على وفاق وانسجام في التواصل، وأحيانًا لا يكونون. وقد انعكس ذلك كله على عدد المرات التي فاز فيها تلاميذه؛ صحيح أنها جيدة لكنها ليست كبيرة. يمكنه أن يتذكّر أيامه السالفة حين كان ملاكمًا محترفًا يُشرف عليه المُدرّب القدير فِتْش؛ فقد كان هو أيضًا يبلي بلاءً حسنًا في حلبة التدريب، ولكن حين يدخل حلبة الملاكمة في النزال الفعلي فإن الإستراتيجية والإعداد (التكتيكات) تخرج كلها من النافذة، ولا يبقى أمامه سوى محاولة شقّ طريقه إلى الفوز بلكماته. لقد شعر دائمًا أنه يفتقد شيئًا ما في أثناء تدريبه على يد فِتْش. لقد أحسن فِتْش تدريبه جيدًا على مهارات رياضة الملاكمة كلها (مثل: الهجوم، والدفاع، وحركة القدمين)، ولكن روتش لم يكن لديه شعور بالصورة الكاملة أو الإستراتيجية الشاملة للملاكمة، ولم يكن الاتصال بينه وبين فِتْش على أحسن ما يكون. ولهذا حين يكون في النزال، ويعاني ضغط الحلبة، كان فجأة يعود إلى طريقته الطبيعية في الملاكمة، وبدا الآن أنه يواجه مشكلة مماثلة مع الملاكمين الذين يُدرِّبهم.

في محاولته تلمّس طريقه خلال عملية يمكنها أن تُحقّق نتائج أفضل قرّر روتش أن يُقدّم لملاكميه ما لم يحصل عليه قطّ حين كان ملاكمًا محترفًا؛ أي أن يمنحهم شعورًا بالصورة

الكاملة للنزال، فطلب إليهم تطبيق هذا السيناريو في الجولات كلها، وتوطيد علاقتهم به، ثم أخذ يُوسّع نطاق عمل القفافيز، فهي الآن ليست عنصرًا في عملية التدريب فحسب، بل محور ارتكازه. بعد ذلك سيقضي ساعات في السجال مع مقاتليه على مدار جولات عدّة. ويومًا بعد يوم بدأ يشعر بلكمتهم، ويقف على إيقاع حركة أقدامهم، حتى بات يشعر أنه داخل أجسادهم، ويشعر بحالتهم المزاجية، ومستوى تركيزهم، ومدى استقبالهم لتعليماته. ومن دون الحاجة إلى التفوّه بكلمة أصبح قادرًا على تغيير حالتهم المزاجية وتركيزهم عن طريق التدريب المُكثّف بالقفافيز معهم.

بعد تدربّه على الملاكمة مُدّ كان عمره ست سنوات كان روتش يشعر بكل شبر من أرض الحلبة، حتى لو وقف في الحلبة وعيناه معصوبتان فإنه يستطيع أن يقيس بدقة أين يقف في الحلبة في أيّ لحظة. وبتدريب تلاميذه من الملاكمين ساعات باستخدام أسلوب القفافيز تمكّن من طبع حاسته السادسة الخاصة بالحلبة والمساحة المحيطة فيهم، مُتمعدًا مناورتهم ليضطروا إلى اتخاذ أوضاع سيئة تجعلهم يشعرون سلفًا كيف أنهم كانوا قد يتعرّضون لذلك الخطر في الحلبة. وبالطريقة نفسها نقل إليهم عدّة طرائق لتجنّب هذه الأوضاع المميّته.

في أحد الأيام، وبينما كان يتأمّل شريط فيديو لأحد الخصوم خطر له فجأة أن طريقته في مشاهدة أشرطة الفيديو هذه كانت غير صحيحة؛ إذ كان يُركّز على أسلوب الملاكم، وهو أمر يمكن للملاكم أن يتحكم فيه، وأن يُغيّره في أيّ وقت لأغراض إستراتيجية، ويبدو أن ما كان يفعله هو عمل سطحي لدراسة الخصم. والإستراتيجية الفضلى هي أن يبحث عن عادات الخصم وخلجات نفسه، وهي أمور لا يملك السيطرة عليها مهما حاول. وكل ملاكم لديه هذه الخلجات؛ إنها علامات تدل على شيء عميق مغروس في إيقاعهم، وقد تتحوّل إلى ضعف. واكتشاف هذه التشنجات اللاإرادية والعادات يسمح لروتش بقراءة أعمق للخصم، ودخول نفسيته وقلبه.

بدأ روتش يبحث عن علامات ذلك في الأشرطة التي كان يشاهدها، وفي البداية كان الأمر يستغرق منه أيامًا عدّة لمعرفة أيّ شيء. ولكن، بعد مشاهدة الكثير من أداء الملاكم الخصم تولّدت لديه القدرة على استشعار أساليب حركة الخصم وتفكيره. وفي نهاية

المطاف كان يعثر على العادة التي يبحث عنها، فمثلاً الحركة الطفيفة بالرأس تسبق دائماً لكمة معيَّنة. والآن، بعد أن وجد ذلك أصبح قادراً على أن يراها في كل مكان من الأشرطة. وبعد أن قام بذلك في عدد كبير من النزالات المختلفة طوال سنوات عدَّة تطوَّر لديه إحساس بتحديد هذه التشنجات اللاإرادية بسرعة أكبر.

بناءً على هذه الاكتشافات صاغ روتش إستراتيجية كاملة قائمة على المرونة. واعتماداً على ما أظهره الخصم في الجولة الأولى كان روتش يُعدُّ لملاكمه مجموعة من الخيارات تفاجئ الخصم، وتربكه، وتبقيه محاصراً. أمَّا بالنسبة إلى وضعية ردِّ الفعل فكانت استراتيجية تشمل المعركة كلها. وإذا لزم الأمر يمكن لتلميذه الملاكم أن يضحي بجولة أو اثنتين من دون أن يفقد سيطرته على الدينامية الشاملة. الآن، وفي تدريبات القفافيز، سيُدرب تلاميذه على هذه الإستراتيجية بتفاصيلها كلها إلى ما لا نهاية، بحيث يحاكي بدقة خلجات الخصم وإيقاعه التي عرفها جيداً، ويُظهر لتلاميذه الملاكمين كيفية الاستفادة من عادات الخصم وضعفه بلا هوادة، ثم يُطلعهم على الخيارات المختلفة التي يمكن تبنيها اعتماداً على ما كشفه الخصم في الجولة الأولى. ومع اقتراب موعد المواجهة الفعلية سيسهر تلاميذه كما لو أنهم خاضوا النزال حقاً وقضوا على الخصم، بعد مواجهتهم روتش مرات عدَّة في مرحلة الإعداد.

في أثناء سير المباريات نفسها أصبح لدى روتش شعور مختلف تماماً عما كان عليه في السنوات السابقة؛ إذ أصبح الاتصال والتفاهم مع تلاميذه مُطلقاً، وأصبحت رؤيته للصورة الكلية (روح الخصم، طريقة السيطرة على فضاء الحلبة في كل جولة، الإستراتيجية الشاملة لكسب المعركة) مطبوعة بعمق في حركة القدمين، والتنقل، وتوجيه اللكمات، وفي تفكير تلاميذه. وكان يمكنه أن يشعر أنه في الحلبة يتبادل اللكمات، ولكنه الآن يشعر بمنتهى الرضا لسيطرته على عقل تلميذه الملاكم وعقل خصمه في آنٍ معاً. كان روتش يشاهد بإثارة متزايدة تلاميذه وهم يوهنون ببطء عزيمة خصومهم، ويستغلون عادات خصومهم ويدخلون في رؤوسهم مثلما علمهم.

بدأ عدد مرات الفوز لتلاميذه يزيد إلى مستوى لم يسبق له مثيل في هذه الرياضة، وقد تجاوز هذا الفتح الملاكم الأساسي الذي يُدربُه وهو ماني باكوويا ليشمل جميع الملاكمين

المنتظمين لديه. ومنذ عام 2003م حاز لقب «مُدربّ الملاكمة الأفضل للعام»، وقد حقّق هذه اللقب خمس مرات، ولم يسبق لمُدربّ آخر أن حصل على اللقب أكثر من مرتين، ويبدو أن روتش في الملاكمة الحديثة قد تفرّد باحتلال طبقة كاملة وحده.

إذا أنعمنا النظر في المسار المهني لفريدي روتش فإننا نرى مثالاً واضحاً على تطوّر الإتقان؛ فقد كان والده - وهو نفسه بطل ولاية نيو إنغلاند في الملاكمة لوزن الريشة - يدفع أبناءه جميعاً إلى ممارسة الرياضة في سنّ مبكرة جداً، وكان فريدي روتش نفسه قد بدأ التدريب الجاد على الملاكمة في سنّ السادسة، واستمر على طول الطريق حتى سنّ الثامنة عشرة التي تحوّل فيها إلى الاحتراف، وقد تضمّنت هذه السنوات الاثنتا عشرة الكثير من الممارسة والانغماس في هذه الرياضة، وعلى مدار السنوات الثمانية التالية من حياته، وحتى اعتزاله الملاكمة كان قد خاض (53) مباراة، وهو عدد كبير من مواجهات الملاكمة. ونظراً إلى استمتاعه بممارسة الملاكمة والتدرب عليها؛ فإن عدد الساعات التي قضاه في صالة الألعاب الرياضية ملاكماً محترفاً كان كثيراً مقارنةً بغيره من الملاكمين. وبعد اعتزاله مكث في مضمار رياضة الملاكمة، حيث عمل مُدرباً مبتدئاً لدى إدي فِتّش. ما إن بدأ حياته المهنية مُدرباً مستقلاً للملاكمة حتى تراكم لديه الكثير من ساعات العمل في هذه الرياضة، ولا سيما أنه ينظر إلى هذه الرياضة من منظور مقارنةً بالمُدربّين الآخرين. وحتى عندما شعر بوجود مستوى أعلى يمكن السعي إليه كان هذا الحدس مُؤسّساً على عمق تلك السنوات الطويلة من الخبرة العملية، ومن وحي هذا الشعور كان قادراً على تحليل عمله حتى ذلك الحين ورؤية حدوده.

كان روتش يعرف من حياته المهنية أن معظم رياضة الملاكمة هي جهد عقلي؛ فالملاكم الذي يدخل الحلبة ولديه شعور واضح بالهدف والإستراتيجية وبالثقة التي تأتي من الإعداد الكامل يملك فرصة أفضل للفوز؛ فأنت تمنح تلاميذك هذا الشعور شيء، وأن تجعله حقيقة واقعة شيء آخر تماماً. بوجه عام، يسود الكثير من التشويش والإرباك قبل النزال، ومن السهل جداً على الملاكم في الحلبة أن يتعرّض لردّ فعل عاطفي، فيلجأ إلى اللكمات، ويفقد أيّ إحساس بالإستراتيجية. وللتغلب على هذه المشاكلات فقد طوّر روتش نهجاً من شقين: وضع إستراتيجية شاملة مرنة بناءً على فهمه عادات الخصم، وطبع هذه

الإستراتيجية في النظام العصبي لتلاميذه خلال ساعات التدريب باستخدام القفز. وبهذا المستوى لم يقتصر تدريبه على المهارات الفردية، بل مثل نهجًا سلسًا متكاملًا يحاكي تجربة النزال الحقيقي في الملاكمة مرارًا وتكرارًا، وقد استغرق الأمر سنوات عدّة من عملية الإصابة والخطأ لإنشاء هذا المستوى العالي من التدريب، ولكن عندما جاء ذلك كله معًا ارتفعت نسبة نجاحه.

في أيّ بيئة تنافسية يوجد فائزون وخاسرون، ولكن الشخص الذي يتمتع برؤية ثاقبة وشهرة عالمية أكثر سيفوز لا محالة، والسبب بسيط؛ فهذا الشخص يملك قدرة على التفكير تتجاوز اللحظة الآنية، ويمكنه التحكم في دينامية شاملة بوضع الإستراتيجيات المتأنية. وللحقيقة، فإن معظم الناس الآن يعمدون إلى العزلة، وينغلقون على أنفسهم دائمًا؛ لذا تكون قراراتهم متأثرة على نحوٍ مفرط بالحدث الأكثر إلحاحًا، ويسهل استثارتهم عاطفيًا، فيولون أهمية كبرى لمشكلة هي حقيقةً أقل من ذلك بكثير. إن تحرك تجاه الإتقان سوف يمنحك نظرة عالمية بطبيعة الحال، ولكن من الحكمة دائمًا الإسراع في العملية عن طريق تدريب نفسك مبكرًا على توسيع منظورك باستمرار، ويمكنك القيام بذلك عن طريق تذكير نفسك دائمًا بالهدف العام من العمل الذي تزاوله الآن، وكيف ينسجم مع أهدافك بعيدة المدى. وفي حال تعرّضت لأيّ مشكلة يجب عليك أن تُدرّب نفسك على النظر في الكيفية التي ترتبط حتمًا بالصورة الكبرى، وإذا كان عمك يفتقد إلى وجود التأثير المطلوب فانظر إليه من الزوايا جميعها حتى تجد مصدر المشكلة. ختمًا، لا تكتفِ بمراقبة المنافسين في مجال عملك، بل حلّل نقاط ضعفهم واكشفها، وليكن شعارك: «اجعل نظرتك أوسع، وتفكيرك أبعد». فهذا التدريب العقلي سوف تُمهّد الطريق لبلوغ الإتقان، وتُميّز نفسك من المنافسة أكثر من أيّ وقت مضى.

6. استسلم للأخر (المنظور الظاهر والباطن)

في شهر كانون الأول (ديسمبر) من عام 1977م وصل دانيال إيفريت، ومعه زوجته كيرين وطفلهما، إلى قرية نائية في غابات الأمازون بالبرازيل (انظر الفصل الثاني، 101)،

حيث انتهى بهم الأمر إلى قضاء جزء كبير من حياتهم في السنوات العشرين التي تلت في تلك المنطقة. تسكن القرية قبيلة تُعرّف باسم البيراها. وكان إيفريت قد أُرسِل إلى القرية بناءً على طلب المعهد الصيفي للغات (إس آي إل)، وهو منظمة مسيحية تُعنى بتدريب المُبشّرين على المهارات اللغوية اللازمة لترجمة الكتاب المقدس إلى لغات السكان الأصليين ونشر الإنجيل، وكان إيفريت نفسه قسيسًا.

كان أعضاء مجلس الإدارة في المعهد الصيفي للغات يُعدّون لغة البيراها واحدة من أقصى التخوم التي سيصلونها في سعيهم لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات جميعًا؛ فهي تُمثّل أكثر اللغات تعقيدًا بحيث يصعب على أيّ أجنبي تعلّمها. لقد عاش شعب البيراها قرونًا في حوض الأمازون ولم يبرحوه، وقاوموا جميع المحاولات الرامية إلى صهرهم في المجتمع المحلي أو تعلّم اللغة البرتغالية. ونظرًا إلى قضاء حياتهم في مثل هذه العزلة؛ لم يعد أحد من خارج القبيلة قادرًا على أن يتكلم لغتهم أو يفهمها. فقد أُرسِل الكثير من المُبشّرين إليها بعد الحرب العالمية الثانية، وجميعهم فشلوا في إحراز أيّ تقدّم يُذكر. وبالرغم من تدريبهم ومواهبهم اللغوية فإنهم وجدوا اللغة مستعصية وبعيدة المنال على نحوٍ يبعث على الجنون.

وفي المقابل، كان دانيال إيفريت واحدًا من ألمع اللغويين الذين يُبشّرون بمستقبل واعد في تاريخ المعهد، وعندما عرض عليه المعهد مواجهة التحدي المُتمثّل في البيراها كان أكثر من مُتحمّس للفكرة. كان والدا زوجته من المُبشّرين المتمركزين في البرازيل، ونشأت زوجته كيرين في بيئة لا تختلف كثيرًا عن قرية البيراها، وبدا أن الأسرة كانت على قدر هذه المهمة. في الأشهر الأولى من وجوده في القرية أحرز إيفريت تقدّمًا جيدًا. وكان قد شرع في دراسة لغة البيراها بطاقة كبيرة. وباستخدام الأساليب التي تعلّمها في معهد اللغات، وتمكّن ببطء من بناء بعض المفردات، والتحدّث ببعض الجمل البسيطة، وقد عمد إلى تدوين كل شيء على بطاقات الفهرسة التي كان يحملها معه بعدما ينظمها في سلك ويُعلّقها في عروة حزامه. لقد كان باحثًا دؤوبًا. وبالرغم من تعرّضه هو وأسرته لبعض التحديات في القرية فقد كان مرتاحًا مع البيراها، وسعى إلى أن يقبلوا بوجوده بينهم. ولكن سرعان ما بدأ يشعر أن كل ما يفعله ليس صحيحًا.

كانت سياسة المعهد الصيفي للغات تُشجّع الاستغراق في ثقافة السكان الأصليين بوصف ذلك أفضل وسيلة لتعلّم اللغة، وكان المُبشّرون يُتركون وحدهم لمواجهة مصيرهم؛ فهم إمّا أن يغرقوا في الثقافة، وأمّا أن يسبحوا في الثقافة المحلية من دون أيّ معدات وأدوات مساعدة، بيد أن إيفريت - ربما من دون وعي - لم يملك إلا أن يبقى على مسافة بينه وبين البيراها، ويشعر باستعلائه الثقافي على ثقافة البيراها المتخلّفة، لكنه لم يتنبه إلى هذه المسافة التي جعلها بينه وبينهم إلا بعد عدّة حوادث وقعت في القرية؛ فبعد مضي عدّة أشهر على إقامته بينهم شارفت زوجته وابنته على الموت بمرض الملاريا. وكان منزعجاً من عدم تعاطف البيراها معه بهذا الشأن. بعد ذلك بقليل، بذل إيفريت وزوجته محاولات يائسة في تطبيب طفل رضيع من البيراها كان يعاني مرضاً خطيراً، كان أهله على يقين أن الطفل سيموت، فأظهروا انزعاجهم من جهود المُبشّرين لمعالجته. وفي أحد الأيام اكتشف إيفريت وزوجته أن الطفل قد مات؛ إذ عمل أهله على تجريعه - قسراً - كمية من الكحول للقضاء عليه. وبالرغم من أنه حاول أن يجد لهم أعذاراً لهذا الحدث فإنه لم يملك إلا أن يشعر بالاشمئزاز مما فعلوه. وفي مناسبة أُخرى كان مجموعة من رجال البيراها - وهم في حالة فقدان للوعي - يبحثون عنه من أجل قتله - من دون سبب على ما يبدو - وقد تمكّن من الهروب، ولم يتعرّض له أحد بعدها، ولكن ذلك جعله يتساءل عن سلامة عائلته.

بيد أنه بدأ يشعر بخيبة الأمل من شعب البيراها أكثر من أيّ شيء آخر. لقد قرأ الكثير عن القبائل الأمازونية، ولكن البيراها لم تكن ترقى إلى مستوى تلك القبائل قط؛ إذ لم يكن لديهم تقريباً أيّ ثقافة مادية (أدوات مهمة، أعمال فنية، أزياء، جواهر)، وفي حال ظهرت لامرأة حاجة إلى سلة أخذت بعض سعف النخيل الرطبة، ونسجتها معاً، واستخدمتها مرة أو مرتين، ثم تخلّت عنها. لم يكونوا يُظهرون أيّ قيمة للأشياء المادية، ولم يكن في قراهم أيّ شيء مُصمّم للبقاء طويلاً. وقد اقتصر الأمر على بعض الطقوس التي يمارسونها، ولكن - بحسب ما رآه إيفريت - لم يكن لديهم فولكلور أو أساطير عن الخلق. وذات مرة استيقظ على وقع جلبة وإثارة في القرية؛ فعلى ما يبدو أن روحاً تعيش فوق الغيوم قد أبصرها سكان القرية، وكانت تُحدّثهم من مغبّة الذهاب إلى الغابة، فنظر إلى السماء حيث كانوا يُحدّقون فلم يرَ شيئاً. لم تتوافر قصص ملونة عن هذا الموضوع، ولا علاقة له بأيّ أسطورة، كل ما

هنالك أن بعض القرويين يُحدّقون بحماسة في مساحة فارغة، لقد كانوا أشبه بمجموعة من الكشافة في رحلة تخييم، أو مجموعة من الهيببيين (قبيلة فقدت ثقافتها بطريقة ما).

رافق هذا الإحباط والشعور بعدم الارتياح إحباطاً مماثلاً في عمل إيفريت. صحيح أنه أحرز بعض التقدم في اللغة، ولكن يبدو أن مع تعلمه المزيد من الكلمات والعبارات ازدادت الأسئلة والألغاز التي تواجهه، وما إن يظن أنه أتقن تعبيراً معيناً حتى يكتشف أنه يعني شيئاً مختلفاً أو شيئاً أكبر مما كان يتصوّر. كان يرى الأطفال يتعلمون اللغة بسهولة، ولكن الأمر بالنسبة إليه كان بعيد المنال بالرغم من أنه عاش بينهم سنوات طويلة. وفي أحد الأيام شهد شيئاً عدّه - فيما بعد - نقطة تحوّل؛ فقد كان سقّف كوخ القش الذي يعيش فيه مع عائلته بحاجة إلى استبدال، وقرّر أن يستعين ببعض القرويين لمساعدته. وبالرغم من اعتقاده أنه صهر نفسه في حياتهم فإنه لم يسبق أن غامر بمرافقة رجال من البيراها في رحلة بعيداً في عمق الأدغال المحيطة. وأخيراً، كان عليه أن يتوغل في الغابة إلى مسافات أبعد بكثير مما وصل إليه من قبل لجمع المواد اللازمة للكوخ. وفجأة، رأى جانباً مختلفاً تماماً في هؤلاء القوم؛ فبينما كان يدوس على الأغصان ويضربها بعصاه ليشق طريقه لاحظ أنهم يسرون في الغابة الكثيفة بانسياب وسلاسة من دون أن يمسه فرع من فروع الشجر أو يُعوق سرعتهم. لم يكن إيفريت قادراً على مواكبتهم في السير، ولذلك توقف ليسترخ قليلاً. وفي هذه الأثناء بدأ يسمع أصواتاً غريبة من مسافة ما، وكان واضحاً أن رجال البيراها يتحدثون إلى بعضهم، ولكن كلامهم تحوّل - بصورة أو بأخرى - إلى صفير، فأدرك أنهم في الغابة يستخدمون هذه الوسيلة المختلفة للاتصال، وهي وسيلة لا يمكن تمييزها من بين همهمة أصوات الغابة؛ لقد كانت وسيلة رائعة للحديث من دون لفت الانتباه، ولا بد أنها كانت سلاحاً فاعلاً في الصيد.

بعد ذلك أخذ ينضم إليهم في غاراتهم اللاحقة في الأدغال، وبها ازداد احترامه لهم؛ فقد كانوا يستطيعون سماع (أو مشاهدة) أشياء لم يكن ليقدّر على تصوّرها: الحيوانات الخطرة، علامات الأشياء المختلفة أو المريبة. وفي بعض الأحيان كانت السماء تمطر في غير موسم الأمطار، فكانت لديهم حاسة سادسة لمعرفة حالة الطقس والتنبؤ بهطل الأمطار

الغزيرة القادمة قبل ساعات من وصولها (يمكنهم حتى التنبؤ بوصول طائرة قبل ساعات من موعد وصولها، ولكنه لم يستطع معرفة كيفية قيامهم بذلك)، وكانوا يستطيعون تحديد كل نبتة من حولهم، وتمييز استخداماتها الطبية المحتملة، وكانوا يعرفون كل شبر من أرض الغابة، فإذا رأوا فقايق أو تموجات في النهر عرفوا فوراً سبب الحركة: سقوط صخرة في النهر، أو تملل بعض الحيوانات الخطيرة القابعة تحت السطح. لقد كانوا بارعين في فهم بيئتهم بصورة لم يلاحظها عليهم حين كانوا في القرية. بعد أن أدرك ذلك بدأ يفهم أن حياتهم وثقافتهم، التي بدت أول وهلة فقيرة ومتخلّفة بحسب معاييرنا، كانت - حقيقةً - غنية على نحو لافت للنظر. لقد تبوّأ طوال مئات السنين أسلوب حياة مناسباً تماماً لأحوال بيئتهم القاسية.

حين عاد يتأمّل الحوادث التي كانت تؤرقه من قبل أخذ ينظر إليها من منظور جديد؛ فحياتهم التي كان يصاحبها الموت عن قرب كل يوم (الغابة تعجّ بالمخاطر والأمراض) جعلتهم يتبنّون نمطاً حياتياً منزوع المشاعر والانفعال نوعاً ما، ولم يكن بوسعهم تحمّل إضاعة الوقت أو الجهد على طقوس الحداد، أو الكثير من التعاطف. كانوا يشعرون بدنوّ الأجل؛ لذا كانوا متيقنين أن الطفل الرضيع الذي حاول إيفريت معالجته كان ميتاً لا محالة، فرأوا أنه من الأسهل والأفضل حسم هذا الأمر والتعجيل بموته وعدم الالتفات إلى الوراء. أمّا رجال القرية الذين فكّروا في قتله فخشوا أن يكون دخيلاً آخر جاء ليفرض قيمه وسلطته عليهم. إذن، كانت لديهم أسبابهم للتصرف على نحو ما فعلوا، ولكن فقط مع مرور الوقت يمكن رؤيتها بوضوح.

بدأ إيفريت يتوسّع في مشاركته حياتهم في جوانبها الأخرى: في رحلات الصيد، وصيد الأسماك، وجمع الجذور والخضراوات في الحقول، وهلمّ جرّاً. كان هو وعائلته يشاركونهم في وجبات الطعام، ويتفاعلون معهم قدر الإمكان، وبهذه الطريقة غمر نفسه شيئاً فشيئاً في الثقافة البيراهيية، وقد أدّى ذلك إلى إحداث تغيير في تعلّمه اللغة نفسها، وإن لم يكن ذلك واضحاً في بدايته. بدأت اللغة تأتي إليه على نحوٍ طبيعي، فأصبح أقل اعتماداً على العمل الدؤوب للباحث الميداني وأكثر اتصالاً بالداخل، وذلك بفضل معيشته داخل ثقافتهم، ثم

بدأ يفكّر بالطريقة نفسها التي يفكّر فيها شعب البيراها؛ لكي يتوقّع ردود أفعالهم على ما قد يطلبه منهم بعض الزائرين الغربيين، واستطاع الولوج إلى داخل حسّهم الفكاهي، وتعرّف كُنّه أنواع القصص التي يتسامرون بها وهم جالسون حول نار المخيم.

ومع بدء تفهّمه مزيداً من جوانب ثقافتهم والتواصل معهم بمهارة وكفاءة، لاحظ المزيد من الخصائص المميّزة للغة البيراها. كان التعليم الذي تلقّاه إيفريت يقوم على المعتقدات السائدة في علم اللغة تأسيساً على النظريات التي رُوّج لها نعوم تشومسكي. وبحسب تشومسكي، فإن اللغات جميعاً تشترك في سمات معيّنة، وهو ما أطلق عليه اسم «القواعد العالمية» للغات كلها. كانت هذه القواعد تنبثق من سمة عصبية مشتركة في الدماغ تسمح للأطفال تعلّم اللغات. ووفقاً لهذه النظرية، فإن البشر مُهيّؤون جينياً وعصبياً لتعلّم اللغة. ولكن مع ازدياد الوقت الذي أمضاه إيفريت بين شعب البيراها فقد ازدادت الدلائل على أن لغتهم لا تشترك في بعض هذه السمات المشتركة؛ إذ إنها لا تعرف الأرقام، وليس فيها نظام للعد والإحصاء، ولم يكن لديهم كلمات معيّنة للألوان، وإنما توصف الألوان بالعبارات التي تتعلق بأجسام حقيقية.

وطبقاً لنظرية القواعد العالمية، فإن أهم سمة مشتركة بين اللغات جميعاً هي ما يُعرّف بالمعاودة؛ أي تضمين عبارة في عبارة أخرى بحيث تعطي اللغة إمكانات لانهائية تقريباً لربط التجارب بعضها ببعض، ففي العبارة الآتية مثلاً: «طعامك الذي تأكله له رائحة طيبة» لم يجد إيفريت على الإطلاق أيّ دليل على المعاودة في لغة البيراها، فتلك العبارة سيُعبّرون عنها بأفكار بسيطة جازمة، مثل: «أنت تأكل طعاماً، والطعام رائحته طيبة». وقد بدأت هذه الاستثناءات الواردة على القواعد العالمية تتراكم وهو ينظر إليها.

في الوقت نفسه، بدأت ثقافة البيراها تبدو منطقية في نظره، وهو ما جعله يُغيّر مما اعتقده عن لغتهم، فذات مرة - مثلاً - تعلّم كلمة جديدة شرح معناها له أحد أفراد القبيلة، وتعني «ما في رأسك عند النوم». إذن، هذه الكلمة هي اللحم، لكنها كانت تُستعمل لمعنى خاص آخر هو الإشارة إلى تجربة جديدة. وبعد مزيد من التحري رأى أن اللحم عندهم هو مجرد شكل مختلف من التجربة، ولا يقتصر بالضرورة على الخيال. اللحم هو حقيقي

ومباشر مثله مثل أي شيء يصادفونه في اليقظة. وبالمزيد من هذه الأمثلة بدأت نظرية جديدة تتكوّن في رأسه، نظرية أطلق عليها اسم «مبدأ الخبرة الفورية»، وهي تعني لشعب البيراها: كل ما يعيننا هو الأشياء التي تحدث هنا الآن، أو تلك التي تتعلق بشيء شهده شخص ما في الماضي القريب جداً.

تُفسّر هذه النظرية خصوصيات لغة البيراها؛ فالألوان والأرقام هي تجريد لا يناسب مبدأ التجربة أو الخبرة الفورية. وبدلاً من المعاودة، كان لديهم بيانات معلنة بسيطة على ما شاهدوه. تشير النظرية أيضاً إلى عدم وجود ثقافة مادية لهم، وافتقارهم إلى أساطير الخلق والقصص التي تشير إلى شيء في الماضي. لقد طوّروا هذا النوع من الثقافة من أجل التكيّف المثالي مع بيئتهم وحاجاتهم، لقد غمرتهم هذه الثقافة بالحاضر عميقاً، وجعلتهم يشعرون بالسعادة على نحو ملحوظ، وساعدتهم على تجاوز الصعوبات النفسية في بيئتهم. ولأنهم لا يملكون الحاجة إلى أي شيء يتجاوز تجربتهم المباشرة؛ لم يكن لديهم كلمات لمثل هذه الأمور. كانت نظرية إيفريت هي ثمرة سنوات من الانغماس العميق في ثقافتهم، وبعد أن استجمعت قوامها في ذهنه استطاعت أن توضح الشيء الكثير عن تلك الثقافة واللغة، ولم يكن ممكناً النظر إليها أو فهمها في بضعة أشهر أو سنوات من المراقبة من الخارج.

كان الاستنتاج الذي توصل إليه إيفريت من ذلك، والذي أثار الكثير من الجدل في مجال اللغويات، هو أن الثقافة تُسهّم إسهاماً فاعلاً في تطوير اللغة، وأن اللغات هي أكثر اختلافاً مما كنّا نتصوّر. وبالرغم من وجود جوانب مشتركة بين لغات البشر جميعها فإنه لا توجد قواعد عالمية للغات تتجاوز أهمية الثقافة. مثل هذا الاستنتاج، مثلما يؤكد إيفريت، لا يمكن أن يتحقّق إلاّ خلال سنوات من العمل الميداني المُكثّف. أمّا أولئك الذين يضعون الافتراضات من بعيد، استناداً إلى نظريات عالمية، فلا يمكنهم مشاهدة الصورة الكاملة. إن الأمر يتطلّب وقتاً وجهداً كبيراً لمعرفة الفروق، والمشاركة في الثقافة. ولأن إدراك هذه الاختلافات هو أمر أكثر صعوبة؛ فإن الثقافة لم تأخذ حقها من الاهتمام بوصفها واحدة من القوى الأساسية التي تُمثّل اللغة والطريقة التي نخبر فيها العالم.

كلما غمر إيفريت نفسه في ثقافة البيراها ازداد تغيُّره. ولم يقتصر الأمر على ازدياد رفضه للمنهج المتبع في دراسة اللغات القائم على تناول الموضوع من الأعلى إلى الأسفل، ورفضه الأفكار السائدة في الحقل، بل تجاوز ذلك ليطال عمله في التبشير؛ فكلاهما كان محاولة لفرض الأفكار والقيم الغربية على شعب البيراها. أصبح إيفريت يرى أن نشر الإنجيل بين أفراد قبيلة البيراها وتحويلهم إلى المسيحية يفسد ثقافتهم التي تكوّنت على مرّ السنين لتكون مناسبة تمامًا لأحوالهم وتمنحهم السعادة والرضا. وبهذه الأفكار الجديدة فقدَ إيمانه بالمسيحية نفسها، وانفصل عن الكنيسة في نهاية المطاف. فبعد أن تعلّم جيدًا ثقافة غريبة عنه ترسّخت في داخله أصبح غير قادر على تقبُّل فكرة تفوّق عقيدة أو نظام قيم واحد على الآخرين. والقناعة بمثل هذا الرأي (أي التفوّق العقدي والثقافي)، مثلما يؤكد إيفريت، هي مجرد وهم يأتي نتيجة البقاء في الخارج.

بالنسبة إلى الكثير من الباحثين في أحوال مماثلة لتلك التي عاشها دانيال إيفريت، فإن الردّ الطبيعي هو الاعتماد على المهارات والمفاهيم التي تعلّموها لأغراض البحث، وهذا يعني دراسة شعب البيراها بالطريقة التي اتبعتها إيفريت في البداية، وذلك بتدوين الملاحظات، ومحاولة وضع هذه الثقافة الغربية في الإطار الذي حدّدته سلفًا النظريات السائدة في اللسانيات والأنثروبولوجيا. وبالقيام بذلك سينال هؤلاء الباحثون المكافآت، وينشرون البحوث والمقالات في المجالات المرموقة، ويحصلون على وظائف ثابتة داخل الأوساط الأكاديمية. ولكنهم في النهاية سيبقون في الخارج وهم ينظرون إلى الداخل، وسيكون جزء كبير من استنتاجاتهم تأكيدات لما افترضوه قبل البحث. إن ثروة المعلومات التي جمعها إيفريت من لغتهم وثقافتهم ستبقى في عالم المجهول. تخيّل كم مرة حدث مثل هذا في الماضي، ولا يزال يحدث في الوقت الحاضر، وكم من أسرار الثقافات الأصلية فقدنا نتيجة هذا النهج الخارجي.

جزء من هذا الميل إلى المنظور الخارجي ينبع من التعصّب والانحياز بين العلماء، وقد يقول قائل: «إن الدراسة من الخارج تحافظ على الموضوعية في البحث». ولكن، أيّ أنواع الموضوعية تلك حين تتلوّث وجهة نظر الباحث بالعديد من الافتراضات والنظريات

سلفاً؟ إن واقع شعب البيراها لا يمكن النظر إليه إلا من الداخل، وبالمشاركة في ثقافتهم. وهذه الأشياء لا تلوّث موضوعية الباحث؛ إذ يمكن للعالم المشاركة من الداخل مع احتفاظه بقدراته على الاستدلال والتحليل، وكان إيفريت يستطيع الخروج من هذه الثقافة ليضع نظريته القائمة على مبدأ الخبرة الفورية. فالحدسي والعقلاني، والمنظور الداخلي والعلوم، يمكنها جميعاً أن تتعايش معاً بسهولة. بالنسبة إلى إيفريت فقد كان اختيار هذا المسار الداخلي يتطلب قدرًا كبيراً من الشجاعة؛ لأن ذلك يعني تعريض نفسه شخصياً لمخاطر الحياة في الغابة، والدخول في مواجهات ضارية مع اللغويين، وتهديد حياته المهنية المستقبلية بوصفه أستاذاً جامعياً، فضلاً عن تولّد نزعة استياء عميقة لديه من المسيحية التي كانت تعني الكثير له عندما كان شاباً، لكنه شعر أنه مضطر إلى القيام بذلك نتيجة رغبته في كشف الحقيقة. وحين تحرك في هذا الاتجاه غير التقليدي كان قادراً على إتقان نظام لغة معقّدة بصورة لا تُصدّق، واكتساب فهم عميق لثقافة البيراها ودور الثقافة بوجه عام.

تذكّر: لا يمكننا أن نخبّر حقيقة ما خبره الآخرون، سنبقى دائماً على الحدّ في الخارج ننظر إلى الداخل، وهذا هو سبب الكثير من سوء الفهم والصراعات، بيد أن المصدر الأولي للذكاء البشري يأتي من تطوير الخلايا العصبية المرآة التي تمنحنا القدرة على وضع أنفسنا في جسد الآخرين وتخيل تجربتهم (16 و 17). وعن طريق التعرّض المستمر للآخرين، ومحاولة التفكير وكأننا في داخلهم يمكننا الحصول على شعور متزايد بوجهة نظرهم، ولكن هذا يتطلب جهداً من جانبنا. إن ميلنا الطبيعي هو أن نسقط على الآخرين معتقداتنا ونظم قيمنا بطرائق حتى نحن أنفسنا لا ندركها. وحين يتعلق الأمر بدراسة ثقافة الآخرين فإننا لن نستطيع التغلب على هذه الإسقاطات الطبيعية، والتوصّل إلى حقيقة تجربتهم إلا عن طريق استخدام قدرتنا على التعاطف والمشاركة في حياتهم. ولقيام بذلك يجب علينا التغلب على خوفنا الكبير من الآخرين واستغرابنا من طرائقهم. يجب أن ندخل في معتقداتهم ونظم قيمهم، والأساطير التي تُوجّههم، وطريقتهم في رؤية العالم. وستبدأ العدسة المغبّشة التي نظرنا إليهم من خلالها أول مرة شيئاً فشيئاً بالوضوح. وبالذهاب إلى أعماق غيريتهم، والشعور بما يشعرون به، يمكننا أن نكتشف ما الذي يجعلهم مختلفين، وأن نتعلّم المزيد عن الطبيعة البشرية. وهذا ينطبق على الثقافات والأفراد، وحتى على مؤلّفي الكتب. كتب نيتشه

ذات مرة: «بمجرد أن تشعر في نفسك أنك ضدي فإنك تكون قد توقفت عن فهم موقفي، ثم حججتي! لا بد أنك ضحية العاطفة نفسها».

7. أُلّف بين أشكال المعرفة جميعها (الرجل والمرأة العالميين)

نشأ يوهان فولفغانغ فون غوته (1749م-1832م) في منزل غير سعيد في مدينة فرانكفورت الألمانية؛ إذ كانت مهنة أبيه في السياسة المحلية متعثرة وفاشلة فأورثته شعورًا دائمًا بالمرارة، وأدّى ذلك إلى سخط زوجته الشابة وانفصالها عنه. وللتعويض عن عدم قدرته على النجاح فقد حرص والد يوهان على أن يتلقّى ابنه أفضل تعليم ممكن، وفعلاً تعلّم الولد الفن، والعلوم، والعديد من اللغات، والجرف المختلفة، والمبارزة، ولكن يوهان وجد الحياة في المنزل تحت عين أبيه الساهرة حياة خانقة لا تطاق. وحين غادر المنزل أخيرًا للدراسة في الجامعة بمدينة لايبزيغ شعر أنه كان أشبه بسجين أُطلق سراحه؛ فكل طاقاته المكبوتة، وهياجه، ومغامراته انفلتت فجأة على نحوٍ جامح مفرد.

عاش يوهان حياة شخص متأنق من الطراز الأول، وألقى بنفسه في الحياة الفكرية بمدينة لايبزيغ، حتى إنه يمكنك أن تراه يجادل الأساتذة والزملاء في هذه الفلسفة أو تلك، وكانت أفكاره تسير بعكس التيار السائد، كان يتحدث بصخب مُهاجمًا المسيحية، ويتوق إلى الديانة الوثنية الإغريقية. وبحسب وصف أحد الأساتذة: «كان الرأي المجمع عليه تقريبًا أنه يعاني خللاً في عقله».

ثم سقط الشاب يوهان في الحب، ومعه ذهب أخيرًا أيُّ بقية من ضبط النفس؛ كانت رسائله إلى الأصدقاء عن علاقة الحُب تُسبّب لهم قلقًا كبيرًا؛ إذ كان يتأرجح بين الغبطة والاكْتئاب العميق، وبين العشق وانعدام الثقة، وتوقف عن تناول الطعام، وعرض الزواج، ثم تراجع عن عرضه، وبدا في نظر الكثيرين من معارفه أشبه بإنسان على حافة الجنون. كتب ذات مرة إلى أحد أصدقائه قائلًا: «إنني أهوي إلى القاع بسرعة كل يوم... وأشعر أنني سأرى نهايتي بعد ثلاثة أشهر»، ثم فجأة عام 1768م، في وسط هذا كله، سقط مغشيًا عليه. وعندما استيقظ وجد نفسه غارقًا في دمائه؛ إذ كان يعاني نزيفًا في الرئة، وعلى مدار الأيام

الفائتة كان على وشك الموت، وبدا للأطباء أن شفاءه سيكون معجزة؛ وخوفًا من تعرُّضه لانتكاسة أخرى، أوصاه الأطباء بالعودة إلى منزله في مدينة فرانكفورت، وأن يلزم سريره شهرًا عدَّةً.

بعد تعافيه من مرضه شعر الشاب غوته كأنه شخص مختلف، وخرج من هذه الوعكة وقد اصطدم بفكرتين لازمتاه حتى آخر حياته؛ الأولى: إحساسه أنه يمتلك نوعًا من الروح الداخلية التي وصفها بالشياطين التي تسكن داخله، وهذه الروح كانت تمثيلاً لكل ما يملكه من هذه الطاقة الكثيفة الشيطانية، وضيق الصدر، ويمكنها أن تتحوَّل إلى قوة مُدمِّرة مثلما فعلت به حين كان في مدينة لايبزيغ. أو يتمكَّن من السيطرة عليها، ويعيد توجيهها إلى شيءٍ مثمر؛ كانت هذه الطاقة من القوة بحيث جعلته يتأرجح من مزاج (أو فكرة) إلى ضده: من الجد إلى اللعب، ومن السذاجة إلى المكر. وأخيرًا قرَّر أن هذا الشيطان كان روحًا زُرعت فيه عند الولادة، وأنه يستحوذ على كيانه كله، وأن الكيفية التي يتعامل بها مع هذا الشيطان هي التي تُحدِّد مدى طول حياته ونجاح مساعيه.

الفكرة الثانية: إن اقترابه من الموت ورؤيته له بأُمِّ عينه في هذه السنِّ المبكرة جعلته يشعر بحضور الموت في عظامه، وبقي هذا الشعور معه أسابيع عدَّة بعد تعافيه، ومع عودته إلى الحياة انتابه فجأة شعور بالغرابة من البقاء حيًّا: امتلاك قلب ورتنين ودماغ تقوم بوظائفها مستقلة عن إرادته الواعية. كان يشعر بوجود قوة في الحياة تتجاوز التجسيد الفردي للحياة، وهي قوة ليست من الإله (فقد بقي غوته وثنيًّا طوال حياته كلها)، ولكنها من الطبيعة نفسها. كان أيام نقاهته يسير مسافات طويلة في الأرياف، وقد تحوَّل شعوره الشخصي بالغرابة من الحياة إلى الاستغراب من منظر النباتات والأشجار والحيوانات، فما القوة التي أوصلت هذه الكائنات إلى هذه الحالة من الحياة المُتكيِّفة بطريقة مثالية مع البيئة؟ ما مصدر الطاقة التي تجعلها تنمو؟

ونظرًا إلى أنه بات يشعر كما لو أنه شخص عُفي عنه بعدما كان محكومًا عليه بالإعدام، فقد انتابه فضول قوي تجاه قوة الحياة هذه، وخطرت له فكرة تأليف قصة تقوم على أسطورة المانية شهيرة لعالم اسمه فاوست استمات في سعيه لاكتشاف سرِّ الحياة، وقابل تجسيدًا

للشيطان اسمه مفستوفيليس ساعده على مسعاه ذلك لقاء الاستحواذ على روحه. فإذا كان فاوست الذي لا يهدأ يريد أن ينعم بالاطمئنان، ولا يريد شيئاً أكثر من ذلك في هذه الحياة، فإن عليه أن يموت، ويمتلك الشيطان روحه. بدأ غوته بتدوين خواطره عن هذه الدراما، وفي الحوارات التي كتبها عمّا دار بين الشيطان وفاوست كان يستمع إلى الأصوات التي تتردّد في داخله، تلك الثنائية الشيطانية في أعماقه تتحاور فيما بينها.

بعد سنوات عدّة بدأ غوته يعمل محامياً في فرانكفورت، ومثلما حدث معه من قبل في مدينة لايبزيغ عادت شياطينه إلى السيطرة عليه؛ لقد كره حياة المحامي التقليدية، وكان يكره أيضاً التقاليد والأعراف كلها التي يبدو أنها تسيطر على الحياة الاجتماعية وتفصل الناس عن الطبيعة، وأيد بقوة أفكاراً متمردة كشف عنها في رواية بصورة رسائل عنوانها «أحزان الشاب فيرتر». بالرغم من أن القصة كانت مستوحاة من حياة أشخاص يعرفهم، ومن بينهم صديق شاب أقدم على الانتحار بسبب قصة حب فاشلة، فإن معظم الأفكار الواردة فيها جاءت من وحي تجاربه الشخصية، وقد روّجت الرواية لرفعة العواطف وسُمّوها، ودعت إلى العودة إلى حياة عمادها الإحساس والمشاعر والاقتراب أكثر إلى الطبيعة في العيش، وكانت مقدمة لظهور الحركة التي انتشرت في أنحاء أوروبا فيما بعد، وأُطلق عليها اسم الرومانسية، وأحدثت ردّ فعل قوي في ألمانيا وخارجها. وبين عشية وضحاها أصبح الشاب غوته شخصية مشهورة. أمّا الرواية فقرأها معظم الناس، وأقدم مئات من الشباب على الانتحار محاكاة لفيرتر اليأس.

كان هذا النجاح الكبير مفاجئاً ومُحيراً لغوته؛ إذ أصبح فجأة على تواصل مباشر بأكثر المؤلّفين شهرة في عصره. وشيئاً فشيئاً عادت شياطينه لتطل برأسها القبيح من جديد، فبدأت حالته النفسية تتأرجح بعنف ذهاباً وإياباً، وشعر باشمئزاز متزايد من نفسه، ومن هذا العالم الذي كان يتردّد إليه، وبدأ يشعر بالانزعاج الشديد من دائرة الكُتّاب والمتقنين الذين هيمنوا على حياته الاجتماعية؛ فقد كانوا متعجرفين إلى أبعد الحدود، وكان عالمهم منقطع الصلة بالواقع والطبيعة مثل عالم المحامين، وأصبح يشعر أنه مُقيّد أكثر بسمعته وشهرته بوصفه كاتباً مثيراً.

في عام 1775م؛ أي بعد عام من نشر رواية فيرتر، تلقى دعوة من دوق فايمار للمجيء إلى دوقيته والبقاء فيها ليعمل مستشاراً شخصياً ووزيراً عنده. كان الدوق يُكِنُّ إعجاباً كبيراً لمؤلفات غوته، وقد حاول استقطاب المزيد من الفنانين إلى بلاطه الممل نوعاً ما. ولكن بالنسبة إلى غوته فقد كانت هذه الدعوة هي الفرصة التي كان ينتظرها؛ لأنه يستطيع الآن أن يقول وداعاً لعالم الأدب، ويتوارى في فايمار، ويمكنه أن يُوجِّه طاقاته إلى العمل السياسي والعلم، علَّه يروِّض تلك الشياطين اللعينة في داخله. لبَّى غوته الدعوة، وفيما عدا رحلة واحدة في وقت لاحق إلى إيطاليا، أمضى بقية حياته في فايمار.

في فايمار فكَّر غوته في محاولة تحديث الحكومة المحلية، لكنه سرعان ما أدرك أن الدوق كان ضعيفاً وغير منضبط، وأن أيَّ محاولة لإصلاح الدوقية سيكون مصيرها الفشل، فقد كان الفساد مُستشرياً فيها. وببطء وجَّه طاقاته إلى شغف حياته الجديد وهو العلوم، فراح يُرَكِّز اهتمامه على علم الجيولوجيا، وعلم النبات، وعلم التشريح. لقد ولَّت السنوات التي قضاها في كتابة الشعر والروايات، وها هو يبدأ بجمع كمية كبيرة من مختلف أنواع الحجارة، والنباتات، والعظام التي يمكنه أن يتفرَّغ لدراستها في بيته طوال الوقت. ومع تعمُّقه في هذه العلوم بدأ يرى ارتباطات غريبة بينها. ففي علم الجيولوجيا حدثت التغيُّرات التي طرأت على الأرض ببطء شديد، على مدار حقبة زمنية طويلة جداً، وكانت من البطء الشديد بحيث يصعب ملاحظتها على امتداد جيل من الناس. والنباتات أيضاً كانت في حال مستمر من التحوُّل، من الحال الأكثر بدائية في شكل البذور إلى الزهرة أو الشجرة. وكل شكل ينبثق عنه شكل آخر من الحياة. فبدأ يفكِّر مَلِيّاً في تقبُّل الفكرة الراديكالية التي ترى أن البشر هم أنفسهم تطوَّروا من أشكال الحياة البدائية، فهذه - بعد كل شيء - هي طريقة الطبيعة.

من الحُجج الرئيسة التي سيقَّت في ذلك الوقت لدحض هذه النظرية التطوُّرية عدم وجود العظمة الواقعة بين الفكين لدى البشر. وهذه العظمة موجودة في فكوك الحيوانات السفلية جميعها، بما في ذلك القروود. ولكن في ذلك الوقت، كان من غير الممكن العثور عليها في جمجمة بشرية. كانت هذه الحُجَّة تُعرِّض بوصفها دليلاً على أن الإنسان هو كائن

منفصل، وأنه خُلِقَ بقدرّة إلهية. وتأسيسًا على فكرته التي ترى أن كل شيء في الطبيعة مترابط بعضه ببعض، فإن غوته لم يكن ليقبل بمثل هذه الفرضية، وبعد إجراء الكثير من البحث اكتشاف وجود بقايا عظيمة ما بين الفكين في العظام الوجيهة العليا لدى الأطفال الرضع، ما يُعدُّ مؤشِّرًا قاطعًا لارتباطنا بأشكال الحياة الأخرى جميعها.

كان أسلوبه العلمي في ذلك الوقت يُعدُّ أسلوبًا غير تقليدي؛ إذ اعتقد بوجود شكل يُمثِّل النموذج الأصلي للنباتات، ويمكن استنتاجه من شكل النباتات وتطوُّرها جميعًا. وفي دراسته للعظام كان يجب المقارنة بين أشكال الحياة كلها لمعرفة إذا كان يوجد تشابه في بنية أجزائها وتركيبها مثل العمود الفقري، وكان مهووسا بالترابط الحاصل بين أشكال الحياة، وهو هوس ناتج من تلك الرغبة «الفاوستية» باكتشاف جوهر الحياة كلها. لقد شعر أن الظواهر الموجودة في الطبيعة تحتوي على سرٍّ جوهرها في بنيتها الخاصة لو أن باستطاعتنا فقط فهمها بحواسنا وعقولنا. سخر العلماء جميعًا من عمله في ذلك الوقت. ولكن في العقود اللاحقة، أصبح من المُسلَّم به أنه وضع ما يمكن عدُّه أول مفهوم حقيقي لنظرية التطور، وكانت أعماله الأخرى مقدمة لمجموعة من فروع العلوم الجديدة التي ظهرت في وقت لاحق، مثل: حقل المورفولوجيا (علم التشكل)، والتشريح المقارن.

في فايمار تحوَّل غوته إلى شخص مختلف عمَّا كان عليه سابقًا، فأصبح عالمًا ومفكرًا رصينًا. ولكن في عام 1801م، ألمَّت به نوبة أخرى من المرض كادت تنهي حياته مرة أخرى، واستغرق الأمر سنوات للتعافي. ولكن بمجيء عام 1805م، بدأ يشعر بقوته تعود إليه، وعادت معها مجموعة من الأحاسيس التي لم يشهد مثلها منذ شبابه. كانت تلك السنة بداية لواحدة من أغرب مُدِّ الإنتاجية وأكثرها دهشة في تاريخ العقل البشري؛ إذ امتدت من منتصف الخمسينيات إلى أواخر الستينيات من عمره. وفي هذه الحقبة انفلتت مرة أخرى شياطينه التي قمعها عقودًا عدَّة، ولكنه الآن يملك الانضباط الذي يكفل توجيهها إلى مختلف أنواع العمل، فبدأت القصائد والروايات والمسرحيات تتدفق منه، وكتب معظمها في هذه الآونة، وتناول فاوست مرة أخرى [الجزء الثاني]. كان يومه مزيجًا مجنونًا من الدراسات المختلفة: الكتابة في الصباح، وإجراء التجارب والمشاهدات العلمية (توسَّعت الآن لتشمل الكيمياء

والأرصاء الجوية) بعد الظهر، ومناقشة الأصدقاء في علم الجمال والعلوم والسياسة مساءً. وقد بدا أشبه بمن لا يعرف التعب، وأنه وهب مرحلة شباب أخرى في حياته.

توصّل غوته الآن إلى استنتاج مفاده أن أشكال المعرفة الإنسانية جميعها هي مظاهر من قوة الحياة نفسها التي أدركها وشعر بها أول مرة اقترب فيها من الموت حين كان شاباً. كان يرى أن مشكلة معظم الناس هي أنهم يقيمون جدراناً اصطناعيةً حول الموضوعات والأفكار، في حين أن المفكر الحقيقي يرى الارتباطات، ويدرك جوهر قوة الحياة التي تعمل في كل حالة من الحالات الفردية، فما الذي يجعل أيّ شخص يتوقف عند الشعر، أو يرى أن الفن لا علاقة له بالعلم، أو يحدّ من اهتماماته الفكرية؟ لقد صمّم العقل ليربط بين الأشياء، فهو كالنول الذي يشبك الخيوط المختلفة في نسيج واحد. وإذا كانت الحياة موجودة ضمن وحدة كلية عضوية، ولا يمكن تقسيمها إلى أجزاء من دون فقدان الإحساس بالكل، فإن النتيجة المترتبة على ذلك هي أنه يتعيّن على التفكير أن يجعل نفسه مساوياً للكل.

لاحظ الأصدقاء والمعارف ظاهرة غريبة في هذه المرحلة الأخيرة من حياة غوته، وهي أنه كان يحب التحدّث عن المستقبل؛ عن العقود والقرون المقبلة. وفي سنواته التي أمضاها في فايمار أضاف إلى دراسته قراءة الكثير من الكتب في موضوعات الاقتصاد والتاريخ والعلوم السياسية، وقد أكسبه ذلك رؤى جديدة جعلته يُسهم بإضافات جديدة إليها من وحي أفكاره. كان يحب التنبؤ باتجاه تيارات الأحداث التاريخية، وقد أصيب الذي عاصروا الأحداث - في وقت لاحق - بالصدمة من صحة تنبؤاته ودقتها؛ فقد توقّع سقوط نظام بوربون الملكي الفرنسي قبل الثورة الفرنسية بسنوات لشعوره أنه فقد شرعيته في أعين الناس. وحين شارك الجانب الألماني في المعارك التي دارت لدهر الثورة الفرنسية، وشهد انتصار الجيش الفرنسي المدني في معركة فالمي، صاح متسائلاً: «من هنا ومنذ هذه اللحظة بدأت حقبة تاريخية جديدة، ويمكنكم جميعاً القول إنكم كنتم شهوداً عليها»، وما عناه هو قدوم عصر الديموقراطيات والجيوش المدنية.

وها هو الآن في سنّ السبعين يقول للناس إن القوميات الصغيرة هي قوة إلى زوال، وإن اليوم سيأتي حين تتوحّد أوروبا في اتحاد على غرار الولايات المتحدة الأمريكية، وهو

تطوّر كان يُرحّب به. كان يتحدث بحماسة عن الولايات المتحدة نفسها، وتوقّع أنها ستكون في يوم من الأيام قوة عظمى في العالم، وأن حدودها ستتوسّع ببطء لتملأ مساحة القارة، وناقش اعتقاده بأن علم التلغراف (الإبراق) الجديد سيربط العالم بعضه ببعض، وأن الناس سيعرفون أحدث الأخبار في كل ساعة، وقد أطلق على هذا المستقبل اسم عصر العجلة السريعة، وهو عصر تُحدّده السرعة، وأعرب عن قلقه من أنه قد يؤدي إلى قتل الروح البشرية.

وأخيراً، وبعد أن بلغ من العمر اثنين وثمانين عاماً، ها هو يشعر أن النهاية قد اقتربت، مع أن عقله لا يزال يقدر مزيداً من الأفكار أكثر من أي وقت مضى. وكان قد أسرّ إلى أحد الأصدقاء إنه من العار أن لا يستطيع العيش ثمانين سنة أخرى، ومَن يدري ما الاكتشافات الجديدة التي كان سيُحقّقها مع كل ما اكتسبه من خبرة متراكمة! لقد كان يُؤخّرُها لسنوات، ولكن الوقت قد حان الآن لكتابة نهاية فاوست نفسه: سيجد العالم لحظة من السعادة، وسيستحوذ الشيطان على نفسه، بيد أن القوى الإلهية ستصفح عن فاوست إكراماً لطموحه الفكري العظيم، وسعيه الدؤوب من أجل المعرفة، وسوف تُخلّصه من الجحيم، وربما من حكم غوته نفسه على نفسه.

بعد بضعة أشهر كتب إلى صديقه، العالم اللغوي الكبير والمربي فيلهلم فون هومبولت، يقول: «إن الأعضاء البشرية، وعن طريق الممارسة والتدريب، والتفكير، والنجاح أو الفشل، والتعزيز أو المقاومة... تتعلّم كيفية القيام بالربط المناسب من دون وعي، فيعمل المكتسب والبدهي جنباً إلى جنب، بحيث ينتج من ذلك انسجام تام هو عجيبة من عجائب العالم... إن العالم محكوم بنظريات مرتبكة لعمليات مرتبكة، وليس عندي ما هو أكثر أهمية من تحويل هذا الشيء المتأبر في داخلي - قدر الإمكان - إلى أفضل ما يمكنني فعله، وأن أحافظ بقبضة حازمة على خصائصي الفردية». كانت هذه الكلمات هي آخر ما كتبه، فبعد أيام معدودة فارق الحياة عن ثلاثة وثمانين عاماً.

بالنسبة إلى غوته، جاءت نقطة التحول في حياته مع النجاح الكبير الذي حقّقته رواية «آلام الشاب فيرتر»، ولم يكن يملك إلا أن يشعر بالانبهار من شهرته المفاجئة، وكان

الناس من حوله يُلحُون عليه ويطالبون بظهور جديد للرواية، ولم يكن آنذاك قد تجاوز سنَّ الخامسة والعشرين، ولكنه حرم الجمهور هذا الظهور الجديد للرواية إلى ما قبل وفاته بقليل. علمًا بأن أياً من كتاباته اللاحقة لم تستطع الاقتراب من مستوى النجاح الذي حقَّقه رواية فيرتر، بالرغم من أنه في سني حياته الأخيرة نال الاعتراف بلقب عبقرى ألمانيا العظيم. إن حرمان الجمهور شيئاً ما فتتوا يطلبونه هو فعل ينمُّ عن شجاعة هائلة، وإن رفض استغلال هذه الشهرة يعني أنها ربما لا تتكرَّر أبداً، وأن عليه أن يتخلى عن ذلك الاهتمام كله، ولكن غوته شعر بشيء في داخله كان أقوى بكثير من إغراء الشهرة؛ فهو لا يريد أن يكون رهينة كتاب واحد، وأن يقصر حياته على الآداب وإثارة مشاعر قُرَّائه. وهكذا أثر أن يسلك درباً فريداً وغريباً في حياته، مُسترشداً بقوة داخلية سمَّها شيطانه الخاص؛ روح قلقة متململة دفعته إلى استكشاف ما هو أبعد من الأدب؛ إلى جوهر الحياة نفسها، وكان كل ما يلزمه هو أن يُتقن التعامل مع هذه الروح التي زُرعت فيه عند الولادة، ويُحسن توجيهها.

أمَّا في مجال العلوم فقد اتبع غوته مساره الفريد في البحث عن أنماط عميقة في الطبيعة، وتوسَّع في دراسته لتشمل حقول السياسة والاقتصاد والتاريخ، ثم عاد إلى الأدب في المرحلة الأخيرة من حياته بعدما امتلأ رأسه بالروابط بين مختلف أشكال المعرفة؛ فقصائده ورواياته ومسرحياته أصبحت مشربة بالعلوم. وفي المقابل، تشرَّبت استكشافاته العلمية بروح الشعر والآداب، وكان له نظرة خارقة في التاريخ. لم يكن اتقانه قاصراً على هذا الموضوع أو ذاك، ولكنه تبدَّى في القدرة على الربط بين الموضوعات اعتماداً على عقود من الملاحظة العميقة والتفكير. لقد مثلَّ غوته ما كان معروفاً في عصر النهضة باسم نموذج الرجل المثالي العالمي؛ أي الشخص المتمكَّن في مختلف أشكال المعرفة بحيث يصبح عقله أقرب ما يكون إلى واقع الطبيعة نفسها، ويمكنه أن يرى أسرارها المحجوبة عن معظم الناس.

في هذه الأيام قد ينظر بعض الناس إلى شخص مثل غوته بوصفه من المخلفات الغربية للقرن الثامن عشر، وينظرون إلى نموذج القائم على توحيد المعرفة بوصفه حلمًا رومانسياً، ولكن العكس هو الصحيح حقيقةً، وذلك لسبب واحد بسيط، هو أن تصميم الدماغ

البشري - حاجته الكامنة إلى إجراء الربط واكتشاف العلاقات بين الأفكار - يمنحه إرادة خاصة به. بالرغم من أن هذا التطور قد يتعرّض لمختلف التحوّلات والانعطافات في التاريخ فإن الرغبة في الربط ستحظى بالفوز في النهاية؛ لأنه جزء قوي من طبيعتنا وميولنا. واليوم تُقدّم لنا بعض جوانب التكنولوجيا وسيلة غير مسبوقة لبناء الروابط واكتشاف العلاقات بين الحقول والأفكار، وسوف تذوب الحواجز المصطنعة بين الفنون والعلوم تحت الضغط الناتج من الرغبة في معرفة واقعنا المشترك والتعبير عنه، وسوف تصبح أفكارنا أقرب إلى الطبيعة، وأكثر حيوية وعضوية. وعليك أنت، أن تسعى - بأيّ وسيلة ممكنة - إلى أن تكون جزءاً من هذه العملية الجامعة، فتوسّع نطاق معرفتك إلى الفروع الأخرى أكثر فأكثر. والأفكار الغنية التي ستأتي من هذا السعي ستكون هي مكافأتك.

عكس القاعدة

عكس الإتقان هو إنكار وجوده أو أهميته، وبالنتيجة إنكار الحاجة إلى السعي من أجل تحقيقه بأيّ شكل من الأشكال، ولكن هذا الانعكاس لن يؤدي إلّا إلى الشعور بالعجز وخيبة الأمل. إن هذا التحوّل سيؤدي إلى الوقوع في عبودية ما يمكننا أن نسميه النفس الزائفة.

إن نفسك الزائفة هي تراكم لكل الأصوات التي قد استبطنتها (استقرت في داخلك) من الناس الآخرين؛ من الآباء والأصدقاء الذين يريدون منك أن تكون متوافقاً مع آرائهم بخصوص ما يجب عليك أن تكون، وما يجب عليك أن تفعل، فضلاً عن الضغوط الاجتماعية للتمسك بقيم معيّنة يمكنها أن تغويك بسهولة، وهي أيضاً تشمل صوت الأنا في داخلك التي تحاول باستمرار حمايتك من الحقائق المرّة غير المُتملّقة. فهذه النفس الزائفة تتحدّث إليك بعبارة واضحة، وعندما يتعلق الأمر بالإتقان فإنها تقول لك أشياء، مثل: «الإتقان هو للعباقرة وذوي المواهب الاستثنائية، ولفلتات الطبيعة. وأنا ببساطة لم أولد بتلك الطريقة، أو تقول: «الإتقان هو أمر قبيح وغير أخلاقي؛ إنه للأشخاص المملوئين طموحاً وغروراً. فمن الأفضل أن أقبل بما قُسم لي في الحياة، وأن أعمل على مساعدة الآخرين بدلاً من إثراء نفسي»، أو تقول: «النجاح كله حظ، وهؤلاء الذين بلغوا مرتبة الإتقان ما هم إلّا أشخاص

عاديون وُجِدوا في المكان المناسب والوقت المناسب، وكان بإمكانني أن أكون مكانهم بسهولة لو ابتسم لي الحظ»، أو تقول أيضاً: «علامَ تعمل مدة طويلة في شيء يتطلب الكثير من الألم والجهد؟ لأيِّ غرض تعمل؟ من الأفضل أن أستمتع بحياتي القصيرة، وأبذل كل ما بوسعي للحصول ما يكفيني».

لا يخفى عليك الآن أن هذه الأصوات لا تنطق بالحقيقة. فالإتقان ليس مسألة جينية تنتقل بالوراثة أو ضربة حظ، بل هو اتباع ميولك الطبيعية والرغبة العميقة التي تثور من الداخل. كل شخص لديه مثل هذه الميول، وهذه الرغبة في داخلك ليست مدفوعة بالأنانية أو الطموح الكبير للسلطة، وكلاهما من المشاعر التي تقف حجر عثرة في الطريق إلى الإتقان؛ إنها تعبير عميق عن شيء طبيعي، وهو الشيء الذي ميّزك عند الولادة لتصبح فريداً. وبتابعك ميولك وتحرك نحو الإتقان فإنك تُقدّم مساهمة كبيرة للمجتمع، وتثريه بالاكتشافات والرؤى، وتُحقّق الاستفادة القصوى من التنوع في الطبيعة وفي المجتمع البشري. وفي الواقع، فإن من منتهى الأنانية أن تستهلك ما ينتجه الآخرون، وأن تنزوي في قوقعة أهدافك المحدودة وملذاتك العاجلة. إن إبعاد نفسك عن ميولك الخاصة لا يؤدي إلا إلى الألم وخيبة الأمل على المدى الطويل، والشعور بأنك أهدرت شيئاً فريداً من نوعه، وسيحوّل هذا الألم إلى الشعور بالمرارة والحسد، ولن تستطيع أن تتعرّف المصدر الحقيقي للاكتئاب الذي تعانيه.

أمّا نفسك الحقيقية فهي لا تتحدّث بكلمات أو عبارات مبتذلة؛ فصوتها يأتي من مكان عميق في داخلك، من الطبقات التحتية من نفسك، من شيء مغروس عضويّاً في داخلك، وهو ينبثق من تفرّدك، ويتواصل عن طريق الأحاسيس والرغبات القوية التي يبدو أنها تتجاوزك. وأنت في نهاية المطاف لن تفهم سبب انجذاب نفسك إلى أنشطة معينة أو أشكال مُحدّدة من المعرفة. إن هذا الأمر لا يمكن تفسيره أو التعبير عنه بالكلمات، فهو مجرد حقيقة من حقائق الطبيعة. وبتعقبك هذا الصوت سوف تدرك قدراتك الخاصة، وتشبع تلك الرغبة العميقة بالإبداع والتعبير عن تفرّدك. إنه موجود لغرض، ومهمة حياتك هي أن تعمل على إخراجه إلى حيّز الوجود.

ولمّا كنّا نحسّن الظن بأنفسنا، ولكننا لا نعتقد بقدرتنا على رسم لوحة فنية مثل لوحة الفنان الإيطالي رفائيل أو تأليف مشهد درامي مثل شكسبير، فإننا نميل إلى إقناع أنفسنا بأن القدرة على القيام بذلك هي شيء على درجة رفيعة من الروعة، وغير مألوف، ونادراً ما يحدث. وإذا كنّا لا نزال من ذوي الميول الدينية فسوف ننسب ذلك إلى رحمة من السماء. ولهذا فإن الغرور وحُب الذات يُعزّزان عبادة العبقرية؛ إذ لن يحول بيننا وبين الشعور بالحرَج والعجز سوى اعتقادنا بأن هؤلاء بعيدون جداً عنّا بوصفهم «معجزة»... ولكن، وبصرف النظر عن هذه المقترحات المنبثقة من غرورنا، فإن نشاط الشخص العبقرى يبدو أنه لا يختلف - أساساً - بشيء عن نشاط مُخترِع الآلة، أو العالم بالفلك أو التاريخ، أو البارِع في (التكتيكات). فهذه الأنشطة كلها يسهل تفسيرها إذا تصوّر أحدنا أناساً لديهم تفكير نشيط في اتجاه واحد، أناس يستخدمون كل شيء بوصفه مادة، أناس يتابعون بحماسة مستمرة حياتهم الباطنية وحياة غيرهم الباطنية، أناس يرون في كل مكان نماذج وحوافز، ولا يشعرون بالتعب من الجمع بين الوسائل المتاحة لهم. والعبقرية أيضاً لا تفعل شيئاً سوى أنها تقوم أولاً على تعلّم كيفية وضع اللبّات قبل تعلّم كيفية البناء، وتسعى دائماً نحو المادة، وتُشكّل نفسها حولها. فكل نشاط للإنسان معقّد على نحوٍ مثير للدهشة، وليس ذلك من العبقرية، ولا شيء منه «معجزة».

- فريدريك نيتشه